ملامح من الإعجاز النفسي
للقرآن الكريم

" دراسة تأصيلية تطبيقة "

بقلم

د. أحمد عدنان الزعبي

أستاذ مساعد في قسم الدراسات القرآنية في جامعة طيبة
في المدينة المنورة
مدرس التفسير وعلوم القرآن في كلية التربية الأساسية
الكويت سابقاً

ملخص عن البحث

إنّ القرآن الكريم معجزة باقية إلى يوم القيامة، أنزله الله لهداية البشرية على اختلاف أجناسها وألوانها ولغاتها، فجعل فيه سراً مخبوءاً في تلاوته، تنصت الآذان لسماعه، وتنجذب القلوب لهدايته، فتقشعر منه جلودهم ثم تلين قلوبهم إلى ذكر الله.

وهو يحمل برهاناً ساطعاً، ونوراً كاشف للظلمات والشبهات، فمن اهتدى بهديه واستمع لتلاوته بتجرد وإنصاف من غير حسد ولا كبرياء، يجد حلاوة التلاوة، تدعوه إلى الهدي والصراط المستقيم.

وكلامه في القرآن من أجمل الكلام وأحسن الخطاب، فالله جميل يحب الجمال، وكلامه صفة من صفاته، و جمال الربوبية هو السرّ في جمال القرآن، كما أن جلال الربوبية هو السر في جلال القرآن.

إن الشعور بالجلال والجمال، والرغبة والرهبة، يجدها قارئ القرآن وهي تغمر قلبه، وخاصة وهو يستعرض قصص الغابرين من الأمم التي طويت واندثرت، فإذا بها تروى من حكيم خبير، ثم يردفها بعبر ومواعظ بأسلوب تقشعر منه الجلود، وتوجل القلوب، لتفر النفوس إلى خالقها وهي تشعر بالإنس في الاقتراب منه، وهو أصدق القائلين، وصف قوله فقال: ﴿**ومن أصدق من الله قيلا**﴾.

وتبقى المعجزة في القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، لا تقف عند زمن من الأزمان، فقد انقطع الوحي – جبريل عليه السلام– بموت الرسول ﷺ، ولكن بقي الوحي المكتوب في كتابه المسطور، مؤثراً في النفوس، يهذبها ويهديها إلى طرق الخير والسداد.

وفي هذا البحث تأصيل نظري وتطبيق عملي في الإعجاز النفس للقرآن الكريم، كيف دخل في الصدور، فوعظ وأنذر وخوف ورغب.

ترجمة ملخص البحث

A summary about the research

The Holy Quran is remaining miracle until the doomsday. Allah revealed it to instruct all the people despite their differences in their genders, colors, and their languages. Our Lord has put a deep secret when we are reciting it. The ears calm to hear it, the hearts attract to its effect. It shudders the skins of those who fear their Lord, then their skins and their hearts become pliant to the remembrance of Allah.

The Holy Quran has the clear evidence and the light that eliminate the dark and the Suspicions. For whom who obey it and hear to its reciting with an objective way without ego or envy, he will find that the flavor of reciting ask him to go to the faith and to the straight path.

His sayings in Quran is one of the best sayings and his speech is the best, Allah is beautiful and he likes the beautiful, his speech is one of his characteristics, so that Allah's beautiful is the secret of the beautiful of Quran, likewise the greatness of the deism is the secret of the greatness of Quran.

The reader of Quran will find that the feeling of the beautiful, the greatness, the desire, and the dread fill his heart, especially when he reads the old stories about those communities which disappeared.

These stories are told from the wise and the expert. Then he joins these with the lessons, the reasons in a way that shudders the skins and warns the hearts to make the human psyche move to his Lord with the feeling happiness in closing to him. Allah is the most honest one said: "who is truer of word than Allah?"

The miracle of Quran still exists until the doomsday. It never stops at any time. However the reveals is stopped with the death of Mohammad (PBUH), but the reveals still written in the Holy Quran. It has that special effect in the human psyche and it leads it to the way of happiness and successes.

This research has Consolidate the theoretical and practical application in self miracle of the Quran. How its income in the breasts and how it warns, fear, and desire.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم ؛ وبعد:

فإنَّ من أجلَّ النعم وأعظمها في الأمة الإسلامية نزول القرآن الكريم الذي تحدى به الأولين والآخرين على مر العصور دون تبديلٍ أو تغيير، وقد حفظ للأمة الإسلامية عقيدتها وتشريعها ولغتها، وصاغ لها أحكامها، فهو منبع العلوم الشرعية ومعينها الذي لا ينضب.

وقد مرَّ القرآن منذ نزوله إلى أن وصل إلينا بمراحل زمنية شاقة، واعترضته عواصف عاتية زادته تألقاً وقوة وجمالاً،ولولا أن يكون القرآن محفوظاً من عند الله لما وصل إلينا إلا القليل منه، بل لو كان هناك كتاب غير هذا الكتاب لطرأ عليه تحريف وتغيير، مثل ما حدث للكتب السماوية الأخرى.

لقد تُلي القرآن على المشركين فشعروا بأثره يسري في نفوسهم وقلوبهم، وحاولوا دفع هذا الشعور أكثر من مرة، ولكن كان سلطانه وروحه أكبر من ذلك، فوقعوا تحت تأثيره، قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا** ﴾[1]، وقد اعترف أئمتهم بهذا التأثير النفسي، فكانوا يخرجون في هجيع الليل خفية ليسمعوا آياته تتلى من الرسول ﷺ.

ومنهم من همَّ بالإسلام والإيمان لولا العادات الجاهلية التي كانت تشده إليها، فآثر كبرياءه وعناده وتعصبه الأعمى على نور الهداية، فترك شهادته للقرآن الكريم متجرداً من كل هوى، فقال: والله إن له لحلاوة،وإن عليه لطلاوة،وإن أعلاه لمثمر ،وإن أسفله لمغدق،وإنه الحق يعلو ولا يعلى عليه،وما هو بقول البشر"

---

١) سورة الشورى آية : (٥٢) .

وهناك قسم أراد الله لهم الهداية والفلاح، فكانت عقولهم أكبر وقلوبهم أثبت وأقوى من عادات الجاهلية، فتأثروا بالقرآن، وشعروا بروعة بيانه، وقوة سلطانه، وأيقنوا أنه لا ينبغي أن يكون من كلام البشر، فأسلموا لله رب العالمين.

وقد خاض العلماء السابقون في الدراسات القرآنية، وتناولوا جوانب متعددة في كتاب الله من تفسير وإعجاز وبيان، فمنهم من أظهر الإعجاز البياني، ومنهم من تناول الإعجاز العلمي، ولكن بقي الإعجاز النفسي بحاجة إلى مزيد من البحث والكتابة فيه، ولعل هذا الجهد المتواضع الذي قدمته في بحثي يكون مساهمة في بناء المكتبة القرآنية، وقد حوى البحث على **مقدمة ومباحث هي:**

المبحث الأول: تعريف الإعجاز النفسي لغةً واصطلاحاً.

المبحث الثاني: نشأة الإعجاز النفسي ومراحل تطوره

المبحث الثالث: علم النفس ومؤثرات النفس الإنسانية وعوائق تأثرها بالقرآن.

المبحث الرابع: أثر الإعجاز النفسي من خلال بعض سور القرآن.

المبحث الخامس: الإعجاز النفسي في قلوب غير العرب.

المبحث السادس: أثر القرآن النفسي على الرسول ﷺ وصحابته.

المبحث السابع:الإعجاز النفسي للقرآن في شفاء الأجساد من العلل والأمراض.

المبحث الثامن: القرآن يستر صاحبه من أذى المشركين.

المبحث الأول
تعريف الإعجاز النفسي لغةً واصطلاحاً

معنى الإعجاز لغة:

قال الفارسي: " العين والجيم والزاء أصلان صحيحان يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخَّر الشيء، فالأول عَجَزَ عن الشيء يَعْجِزُ عَجْزاً، فهو عاجز، أي: ضعيف....ويقولون: أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه "[١]

وهو ضد القدرة[٢]، قال تعالى:﴿ **أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب** ﴾[٣].

وأما الأصل الآخر فالعجز: مؤخَّر الشيء، والجمع أعجاز، حتى إنهم يقولون عجز الأمر، وأعجاز الأمور [٤].

وأما النفسي: فهو من نَفَس ، يقول الفارسي: " النون والفاء والسين أصل واحد يدل على خروج النسيم كيف كان، من ريح أو غيرها، وإليه يرجع فروعه. منه التنفس: خروج النسيم من الجوف، ويقال للعين نفْسٌ، وفي الحديث: "**لا تسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن** "[٥] يعني أنها روحٌ يُنفس به عن المكروبين[٦]،وقد اختلف في المراد بالنفس، قال الراغب: النفس الروح[٧]، ومنه قوله تعالى (أخرجوا أنفسكم) [٨]، وقال أهل اللغة: النفس في كلام العرب على

---

١) معجم مقاييس اللغة : مادة (عجز) ٢٢١/٢ .
(٢) المفردات في غريب القرآن – للراغب الأصفهاني – ص ٤٨٤ .
(٣) سورة المائدة ، آية : (٣١) .
٤) معجم مقاييس اللغة : مادة (عجز) ٢٢٢/٢ .
٥) رواه أحمد في مسنده ١٢٣/٥. النهاية ٩٤/٥ ،
٦) معجم مقاييس اللغة (نفس) ٥٧٤/٢ .
٧) المفردات ٨١٨ .
٨) سورة الأنعام آية: (٩٣)

وجهين: أحدهما الروح، والثاني أن معنى النفس حقيقة الشيء وجملته. (١)

ومعناه في الاصطلاح: هو ما يحدثه القرآن من أثر ظاهرٍ أو باطن على النفس البشرية المؤمنة وغير المؤمنة السامعة أو القارئة له، وهي عاجزة عن مقاومته ومدافعته.

أما لفظ الإعجاز أو المعجزة فلم يرد في القرآن أو السنة، لكن ذكرت بعض الألفاظ التي تكون قريبة من هذا المعنى، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ **أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب** ﴾ وهي بمعنى: أجهلت، وفي حديث النبي ﷺ عندما سئل عن ليلة القدر فقال: " **التمسوها في العشر الأواخر، فإن ضعف أو عجز فلا يغلبن على السبع البواقي** " (٢).

أما اصطلاح إعجاز القرآن على كتاب الله فلم يرد على ألسنة السلف،ولكن وردت عنهم بعض الألفاظ التي يفهم منها الإعجاز مثل: البرهان، السلطان، آية.

وقد جعل الله كتابه معجزاً لا يقدر البشر عليه، ففيه جملةٌ من الجوانب الإعجازية مثل: الإعجاز البياني، والإعجاز العلمي، والإعجاز الغيبي، ثم الإعجاز النفسي.

والدراسة في هذا البحث تكون في القسم الثالث، وهو الإعجاز النفسي.

المقصود بهذا النوع من الإعجاز: قوة تأثير القرآن في قلوب المستمعين، والأثر الذي يحدثه في قلوبهم، وما ينعكس في أقوالهم وأفعالهم لدى سماعهم آياته.

قال أبو داود: " إنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في الحال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه، تستبشر به النفوس،وتنشرح له الصدور "(٣).

---

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ٢٠٤/٤ .

(٢) صحيح مسلم رقم ٢٠٩ ، باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها .

(٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٧٠ .

إنَّ آيات الله إذا تليت على النفوس البشرية المؤمنة تخشع وتستكين هيبةً وإجلالاً لهذا الذكر العظيم، قال تعالى:﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ (١).

وإذا تُليَ على الكافرين والمنافقين كان أثرُه بليغاً، حيث يقارعهم بالحجة والبرهان، فإذا بهم ينخرسون، بل منهم من تشده آياته إلى مزيدٍ من الاستماع والإنصات حتى يغلب على مجامع قلوبهم، فيصبحوا مأسورين لروعة تأثيره، قال تعالى: ﴿**فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾(٢).

أي: وجاهدهم بهذا القرآن، لأنه سيفه البتار الذي يقطع حجج الكافرين، ومحالٌ أن يكون هذا السيف مثلوماً غير قاطع، ثم يأمره أن يجاهد به الكافرين.

قال تعالى: ﴿ **رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ**﴾ (٣)، فجعل القرآن والوحي به كالروح، لأنه يؤدي إلى حياة الأبد، ولا فائدة للجسد بدون الروح،وقال في آية أخرى:﴿ **وكَذلِكَ أَوْحَيْنا إليكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا** ﴾ (٤)،وهو القرآن الذي شُبِّه بالروح التي تسري في الجسد الميت فيحييه ويدب فيه الحياة.

(١) سورة الزمر ، آية (٢٣) .
(٢) سورة الفرقان آية : (٥٢) .
(٣)سورة غافر آية : (١٥) .
(٤)سورة الشورى آية : (٥٣) .

وإذا كان الشعر الوجداني الذي يخرج من قلبٍ صادقٍ بوصفٍ بياني، وفصاحة أدبية يؤثر في قلوب الناس عند سماعه أو قراءته، كما قال الشاعر في ساعة احتضاره وهو بعيدٌ عن أهله وعشيرته [1]:

تـذَكّرتُ مـن يبكـي عليّ فلـم أجـدْ ... سـوى السـيفِ والـرُّمح الـرُّديْنيّ باكيـاً
وأشقـــرَ محبـــوكٍ يجـــرُّ عِنـــانَهُ ... على المـاء لم يـترك لـه الـدهرُ سـاقياً
ولمـــا تـــراءت عنـــد مـــرو منيـــتي ... وحـلّ بهـا جسـمي وحانـت وفاتيـا
أقـــول لأصـــحابي: ارفعـــوني فـــإنني ... يقـــرُّ بعيـــني أن سُـــهيلٌ بـــدا ليـــا
فياصـاحبي رحلـي دنا المـوت فـانزلا ... برابيـــــةٍ ؛ إني مقـــــيمٌ لياليـــــا
وقُومـا إذا مـا اسْـتُلّ روحـي فهيّئـا ... لي السِّـدر والأكفـان ثم ابكيـا ليـا
وخُطّـا بأطـراف الأسـنّة مضـجعي ... ورُدّا علـى عيـني فضْـلَ ردائيـا
خُذَاني فجُرّاني بِبُرْدِي إليكما ... فقد كنتُ قبلَ اليوم صَعْباً قِيادِياً

فكيف بالقرآن الذي وصفه تعالى بقوله: ﴿ **هذا بيانٌ للنَّاس** ﴾ [2]، فالقرآن أعلى منازل البيان وأبينها، فله وقعٌ في القلوب أبلغ وأعظم من قول البشر، فهو الذي يقلق ويؤنس، ويفرح ويبكي،ويزهد ويرقق، وينذر ويهدد، ويكرّه ويشوّق، ويبعث النفوس البشرية إلى الانقياد والاستسلام له.

فكم قُرِئ القرآن على نفوسٍ بشريةٍ، كان سبباً في هدايتها لخالقها بعد أن عجزت مواعظ البشر عن ذلك، وكم تليت آيات الله في بلادٍ فكان سبباً في فتحها، وكم قُرِئ على نفوس مؤمنة مطمئنة فازداد إيمانها ويقينها بالله عزوجل.

---

(١) الأبيات لمالك بن الريب ، كان شاباً شجاعاً استغل قوته في قطع الطريق مع ثلاثة من أصحابه فمر عليه سعيد بن عثمان وهو ذاهب لقتال أهل خراسان فرغبه في الجهاد في سبيل الله ، فأبلى بلاءً حسناً ، ثم عاد إلى أهله ، فأدركته المنية في الطريق قبل الوصل إليهم ، فقال الأبيات في ساعة احتضاره ، سنة ٥٦هـ . الكامل للمبرد (٤/٧١-٧٤)، والأغاني للأصفهاني(٢١/ ٢٥٨-٢٧٥). ...

(٢) سورة آل عمران آية : (١٣٨) .

لقد فتحت عاصمة دولة الإسلام – المدينة – بالقرآن على يد مصعب ابن عمير ﷺ، وقد حول القرآن العصاة إلى عبادٍ طائعين مخلصين، فغدوا أئمةً في الفقه وأصوله، وفحولاً في الحديث وعلومه، ووذات مرّة قام أحد اللصوص بقطع طريق قافلةٍ، فسمع آيات الله تتلى في هجيع الليل وسكونه، فكانت سبباً في إسلامه وتوبته، ورجوعه عن وسوسة إبليس وجنده.

المبحث الثاني
نشأة الإعجاز النفسي ومراحل تطوره

من خلال دراسة هذا النوع من الإعجاز يتبين أنه مرّ في مرحلتين من مراحل أصل نشأته وتطوره:

المرحلة الأولى: أصل نشأته: تتصل مرحلة اللون الإعجازي للقرآن بنزوله على قلب النبي ﷺ اتصالاً مباشراً،وذلك لأمور منها:

١– بدأ هذا اللون من الإعجاز في مراحله الأولى منذ نزول كتاب الله على قلب النبي ﷺ في مكة، وقد أمره الله تعالى بأن يتلو كتابه على الناس جميعاً قال تعالى: ﴿**وقرآناً فرقنا لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** ﴾ (١). وأمره أيضاً بإسماع المشركين القرآن، ليكون حجةً باهرة وسلطاناً دامغاً في دعوة الناس إلى الإسلام، قال تعالى: " ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه** ﴾ (٢).

ولولا أنَّ سماع القرآن برهان ساطع على هداية الناس يزيدهم إيماناً وتأثراً لما أمر الله نبيه ﷺ بتلاوته وإسماعه المشركين.

يقول الإمام الجرجاني: " وأبين من ذلك قول الله عز وجل: ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه** ﴾ فجعل سماعه حجةً عليه بنفسه، فدلَّ على أن فيهم من يكون سماعه إياه حجةً عليه " (٣).

---

(١) سورة الإسراء آية : (١٠٦) .
(٢) سورة التوبة آية :(٦) .
(٣) إعجاز القرآن للجرجاني ص ٢٤ .

وقد استعمل النبي ﷺ هذا السلاح النفسي في دعوته، فكان يسمع المشركين آيات الله، فإذا بقلوبهم تلين وصدورهم تنشرح لسماع الحق، وسنقف على نماذج في ذلك.

ويلاحظ أن هذه الفترة كانت فترة سلوك وممارسة استعملها السلف في هداية الناس، ولم تكن فكرة التدوين والتصنيف فيه قائمة، ذلك أن الدعوة كانت قائمة على الحوار في عهودها الزمنية الأولى، فاقتضى الحال في السماع والتبليغ مباشرة من الرسول ﷺ وصحابته.

مرحلة التدوين والتصنيف:

بدأت مرحلة التدوين لدى العلماء فأخذوا يصنفون الكتب والمؤلفات في الدراسات القرآنية، وأخذ الإعجاز النفسي للقرآن الكريم يتضح جلياً في دراساتهم وتصانيفهم، ومن العلماء السابقين: الخطابي، والجرجاني، وابن القيم الجوزية.

١ – الإمام الخطابي أول من تناول هذا الإعجاز تدويناً

يعد الإمام الخطابي أول من تناول هذا النوع من الإعجاز تأصيلاً وتدويناً،وقد سمي هذا اللون من الإعجاز بالإعجاز التأثيري _ النفسي –، يقول الخطابي رحمه الله: " قلت في إعجاز القرآن وجهٌ آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن – منظوماً ولا منثوراً – إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص من إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ؛ فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً "(١).

بهذا التأصيل يعد الخطابي أول من تناول هذا النوع من الإعجاز بصورة علمية، وذلك بذكره الأدلة من القرآن والسيرة النبوية، وهو وإن لم يدوِّن فيه رسالةً خاصةً، ولكنه أشار إليه في كتاباته.

٢ – وأما الإمام عبد القاهر الجرجاني

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٧٠، ٧١ .

فقد تأثر بالإمام الخطابي في نظرته لهذا اللون من الإعجاز ، يقول الدكتور محمد بركات: "مما تميز به الخطابي: أنه أبرز وجهاً للإعجاز، وهو الأثر النفسي، وأصبح هذا الرأي أساساً من أسس نظرية عبد القاهر في النظم في كتبه وكتب بعض المعاصرين في الأدب...." (١)

وقد ذكر الإمام الجرجاني بعض الشواهد من تأثر القرآن الكريم في العرب عندما سمعوه من الرسول ﷺ فتأثروا بتلاوته واهتدوا عليه ، فمما ذكره:

أ- حديث جبير بن مطعم دخل على النبي ﷺ وهو يقرأ سورة: ﴿**والطور وكتاب مسطور** ﴾، في صلاة الفجر، قال: فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ **إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع** ﴾ قال: خشيت أن يدركني العذاب، فأسلم(٢).

ب- حديث عتبة بن ربيعة عندما أرسلته قريش إلى الرسول ﷺ فأسمعه شيئاً من القرآن، فوثب مخافة العذاب (٣).

ج- حديث عمر بن الخطاب عندما سمع سورة طه ؛ فرقَّ قلبه ودمعت عينه، ثم أسلم (٤)

هذه الأمثلة التي ذكرها الإمام الجرجاني وضَّح فيها الإعجاز النفسي لكتاب الله في نفوس العرب عندما سمعوه من الرسول ﷺ، وهناك بعض الشواهد القرآنية التي تحمل في آياتها الأثر النفسي في النفس البشرية عند سماعها أو تلاوتها، فمنها:

١- "قول الله تعالى :﴿**يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ**﴾ (٥) يقول فيها: أي لفظ يدرك هذا المضمار، وأي حكيم يهتدي إلى

---

١) في إعجاز القرآن ص ١٠٨ .
(٢) ص ٢٤ .
(٣) إعجاز القرآن ص ٢٤
(٤) ص ٢٤ .
(٥) سورة غافر آية: (١٥) .

ما لهذا من الغور، وأي فصيح يهتدي إلى هذا النظم، ثم استقرئ الآية إلى آخرها، واعتبر كلماتها، واع بعدها.

٢- قوله: ﴿**يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ* الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ (١).

من يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث على قربها، وعلى خفتها في النظم ووقوعها من القلب "(٢).

إنَّ كتاب الله ذو سر عظيم، يسري في النفوس البشرية أسرع من النار في الحطب.

٣- ابن قيم الجوزية وموقفه من الإعجاز النفسي للقرآن الكريم

ذكر الإمام ابن القيم الجوزية هذا النوع في تصانيفه فقال: " إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ (٣)

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتضٍ، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظٍ وأبينه، وأدلّه على المراد "(٤).

وضَّح ابن القيم موقفه من هذا النوع من الإعجاز، وذكر في كلامه شروط تحقق هذا النوع من الإعجاز وهي:

أ- المؤثر القوي، ويقصد به القرآن الكريم.

ب- أداة التلقي، وهما: (القلب والسمع).

---

(١) سورة غافر آية: (١٦:١٧) .

(٢) إعجاز القرآن ص ١٣٠

(٣) سورة ق آية (٣٧)

(٤) الفوائد ص: ٥

ج- الرغبة لدى السامع في تدبر مايسمعه.

د- التخلص من العوائق مثل الانحرافات العقائدية، أو النزغات الشيطانية من حظوظٍ نفسية ذاتية مثل الجاه والسلطان...الخ

بعد استعراض رأي وموقف العلماء السابقين الأقدمين من الإعجاز النفسي لكتاب الله،نبين موقف العلماء المحدثين تجاه هذا النوع من الإعجاز.

٤- موقف سيد قطب رحمه الله.

كان موقف سيد جلياً أمام هذا النوع من الإعجاز، فعندما طلب كفار مكة وهم أبو جهلٍ وعبدالله ابن أبي أمية من الرسول الله ﷺ ، آية، فقال له ابن أبي أمية: إنَّ سرّك أن نتبعك فسير لنا جبال مكة بالقرآن، فأذهبها عنا حتى تنفسح، فإنها أرضٌ ضيقة، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً حتى نغرس ونزرع، فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حين سخر له الجبال تسير معه، وسخر لنا الريح نركبها إلى الشام نقضي عليها ميرتنا وحوائجنا، وأحي لنا قصياً جدك، أو من شئت أنت من موتانا فنسأله: أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل ؟ فإن عيسى كان يحي الموتى [١].

فأنزل الله: ﴿ **ولو أنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ به الجبالُ أو قُطِّعتْ به الأرضُ أو كُلِّم به الموتى بلْ لله الأمرُ جميعاً** ﴾ [٢]

قال القرطبي: " والجواب محذوف تقديره لكان هذا القرآن، قال قتادة. لو فعل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم "[٣].

قال سيد رحمه الله مبيناً موقفه من الإعجاز النفسي للقرآن [٤]: " لقد صنع هذا القرآن في النفوس التي تلقته وتكيفت به أكثر من تسيير الجبال وتقطيع الأرض، وإحياء الموتى، فكم غير الإسلام من وجه الأرض إلى جانب ما غير من وجه التاريخ.

---

(١) الجامع للأحكام القرآن للقرطبي ٣١٩/٩ .
(٢) سورة الرعد آية : (٣١) .
(٣) الجامع للأحكام القرآن للقرطبي ٣٢٠/٩ .
(٤) في ظلال القرآن ٢٠٦١/٣.

وإنَّ صنيعة هذا القرآن لتحتوي على قوة خارقة نافذة يحسها كل من له ذوق وبصر وإدراك للكلام، والذين تلقوه وتكيفوا به سيروا ما هو أضخم من الجبال، وهو تاريخ الأمم والأجيال ؛ وقطعوا ما هو أصلب من الأرض وهو جمود الأفكار وجمود التقاليد، وأحيوا ما هو أخمد من الموتى وهو الشعوب التي قتل روحها الطغيان والأوهام ؛ والتحول الذي تم في نفوس العرب وحياتهم، فنقلهم تلك النقلة الضخمة دون أسباب ظاهرة إلا فعل هذا الكتاب ومنهجه في النفوس والحياة أضخم بكثير من تحول الجبال عن رسوخها، وتحول الأرض عن جمودها، وتحول الموتى عن الموات " اهـ.

يبين سيد موقفه من قوة تأثير كتاب الله كيف غُذِّيت أرواح المسلمين بالقرآن، فربيت نفوسهم، وخضعت قلوبهم لرب العالمين، بعد أن كانوا متحاربين فيما بينهم، فهم أبناء حرب البسوس وداحس والغبراء، وما يوم الفجار عنهم ببعيد، ولكن القرآن صقل قلوبهم، وهذب أرواحهم، وكفّ أيديهم عن الحروب واستعارها، فصاروا إخواناً متحابين، فأقام بينهم إخوة لم تحدث في تاريخ البشرية من قبل ولن تحدث بعد، قال تعالى:﴿ **والذين تبوؤا الدَّارَ والإيمان من قبلِهم يُحِبُّون من هاجرَ إليهم** ﴾ (١)

يقول سيد رحمه الله: " إنَّ في هذا القرآن سرّاً خاصاً يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيه، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئاً ماوراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير وأن هنالك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحاً، ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه على حالٍ موجود، هذا العنصر الذي ينسكب في الحس، يصعب تحديد مصدره، أهو في العبارة ذاتها ؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التي تشعها..... ذلك سر مودع في كل نصٍّ قرآني يشعر به كل من يواجه

(١) سورة الحشر آية : (٩) .

نصوص هذا القرآن ابتداءً، ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله "[1].

وقد ذكر " سيد " قصة جرت معه تبين من خلالها أثر القرآن على النفوس البشرية عند ما سمعت امرأة " يوغسلافية " القرآن الكريم فبكت بكاءً شديداً، تأثراً به على الرغم من عدم معرفتها بالعربية ومعانيها.

يقول: "كنا على ظهر الباخرة في عرض الأطلنطي في طريقنا إلى نيويورك، حين أقمنا صلاة الجمعة على ظهر المركب، وألقيت خطبة متضمنة آيات من القرآن في ثناياها، وسائر ركاب السفينة من جنسيات شتى متحلقون يشاهدون.

وبعد انتهاء الصلاة جاءت إلينا سيدة يوغسلافية ! جاءتنا وفي عينيها دموع لا تكاد تمسك بها وفي صوتها رعشة، وقالت لنا في إنجليزية ضعيفة: أنا لا أملك نفسي من الإعجاب البالغ بالخشوع البادي في صلاتكم...، ثم إن هناك فقرات مميزة في خطبة الخطيب.. هي أشد إيقاعاً.. ولها سلطان خاص على نفسي !!!

وعرفت طبعاً أنها الآيات القرآنية،المميزة ذات السلطان الخاص."([2])

هذه قصة واقعية توصل سيد من خلالها على أثر القرآن في النفوس البشرية غير المؤمنة، وقد بين في مواضع متعددة من كتابه على أهمية هذا الجانب من جوانب الإعجاز.

(١) في ظلال القرآن جـ ٣٣٩٩/٦ .
(٢) المرجع السابق ٨٢١/٢.

٦- رأي الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في الإعجاز النفسي:

تناول الشيخ الغزالي جانباً من الإعجاز في القرآن الكريم، فتناول عدة محاور منه، وهو الإعجاز النفسي، والإعجاز العلمي، والإعجاز البياني، وقال عن الإعجاز النفسي:" قد تجد في القرآن حقيقة مفردة، ولكن هذه الحقيقة تظهر في ألف ثوب، وتتوزع تحت عناوين شتى، كما تذوق السكر في عشرات من الطعوم والفواكه، وهذا التكرار مقصود، وإن لم تزد به الحقيقة في مفهومها.

وعندي أن قدراً كبيراً من إعجاز القرآن الكريم يرجع إلى هذا، فما أظن امرأً سليم الفكر والضمير يتلو القرآن أو يستمع إليه ثم يزعم أنه لم يتأثر به.

قد تقول: ولم يتأثر به ؟ والجواب أنه ما من هاجس يعرض للنفس الإنسانية من ناحية الحقائق الدينية إلا ويعرض القرآن له بالهداية وسداد التوجيه..

وما أكثر ما يفر المرء من نفسه، وما أكثر الذين يمضون في سبيل الحياة هائمين على وجوههم "[١]

يؤكد الشيخ الغزالي أن جانباً مهماً في الإعجاز للقرآن الكريم وهو الإعجاز النفسي، له تأثير في النفس، وهناك قدر كبير في كتاب الله من الإعجاز يرجع على هذا القسم، لأن آياته تليت على مسامع الناس لتبني أفكاراً ومشاعر، ولتغير مفاهيم جاهلية ترسخت في عقول أصحابها، فكانت آياته حججاً دامغة، وأدلة قوية في اقتلاع مثل هذه المفاهيم.

ويقول: "إنَّ القرآن الكريم يرد الصواب إلى أولئك جميعاً وكأنه عرف ضائقة كل ذي ضيق، وزلة كل ذي زلل، ثم تكفل بإزاحتها كلها، كما يعرف

---

١) نظرات في القرآن ص ١٠٥ .

الراعي أين تاهت خرافه، فهو يجمعها من هنا وهناك لا يغيب عن بصره ولا عن عطفه واحد منها، وذلك سر اتعميم في قوله عزوجل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ (١)حتى الذين يكذبون بالقرآن ويرفضون الاعتراف بأنه من عند الله.

إنهم يقفون منه مثلما يقف الماجن أمام أب ثاكل، قد لا ينخلع من مجونه الغالب عليه، ولكنه يؤخذ فترة ما بصدق العاطفة الباكية.

أو مثلما يقف الخلي أمام خطيب يهدر بالصدق، ويحدث العميان عن اليقين الذي يرى ولا يرون.

إنه قد يرجع مستهزئاً، ولكنه يرجع بغير النفس التي جاء بها.
والمنكرون من هذا النوع لا يطعنون في التأثير النفسي للقرآن الكريم كما أن العميان لا يطعنون في قيمة الأشعة.

ولذا يقول الله عز وجل: **﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** (٢) "(٣).

١) سورة الإسراء آية (٨٩) .
٢) سورة الزمر آية : (٤٢)
٣) المرجع السابق ص ١٠٥

المبحث الثالث
علم النفس ومؤثرات النفس الإنسانية بالقرآن وعوائق تأثرها

١ – تعريف علم النفس:

هو العلم الذي يبحث في سلوك الإنسان، وقيل هو الذي يبحث في وظائف الدماغ.

ولكن التعريف المصطلح: هو العلم الذي يبحث في السلوك الظاهر للإنسان وتوافقه مع البيئة دراسةً نظامية ([١]).

ويعتمد علم النفس إلى معرفة سلوك الكائن البشري من حيث تصرفاته العقلية، ويكون الجهاز العصبي والغددي مسئولين عن عملية سلوكيات وتصرفات الإنسان ([٢]).

٢ – مؤثرات النفس الإنسانية:

هناك مؤثرات تتأثر بها النفس البشرية، فتصبح عاملاً في سلوكها، ومن أهم العوامل المؤثرة في النفس البيئةُ المحيطة بها، وقد بين الرسول ﷺ هذا التأثر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء**"([٣])، ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿**فطرت الله التي فطر الناس عليها**﴾[٤].

٣ – أصل نشأة الإنسان.

خُلق الإنسان من قبضة طين ونفخة روح، وقد بين الله قصة بداية نشأته فقال:﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون** ﴾([٥]).

---

١) علم النفس والحياة . للدكتور محمد نجاتي ص ٢٠
٢) المرجع السابق .
٣) صحيح البخاري كتاب الجنائز رقم ١٢٩٢ .
٤) سورة الروم آية : (٣٠)
(٥) سورة الحجر آية : (٢٦) .

خُلق من قبضة طين ليكمل بناءه الجثماني الحيواني، فهو يأكل ويشرب ويؤدي عملية الجنس بدافع جسدي ليستمر قوامه وحياته الجسدية،وقد أثبت علماء الأحياء أنَّ الإنسان مكون من العناصر التي توجد في التراب، فهو مكون من الحديد والنحاس والكالسيوم والأكسجين والكربون.

وتأكيداً لهذا الأمر فإن الكائن البشري إذا مات تحلل وتفسخ ليعود إلى ماهيته التي منها خلق.

وخلق من نفخة روح وهي المتمثلة بالجانب الروحاني، وهو جانب عظيم لا يعرف كنه حقيقته إلا الله: ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي** ﴾ (١).

ونعلم أثر هذا الجانب أن هذه النفوس البشرية إذا ذكِّرت بالله وذكِّرت بالجنة والنار هدأت واستكانت، وإذا روِّضت على قلة الطعام والشراب صارت خفيفة، فوجهت صاحبها إلى الخير، وتاقت إلى المستوى الذي هبطت منه، وهذه صفات عباد الله، ويرى هذا الأثر واضحاً في شهر رمضان.

رأى رسول الله ﷺ حارثة قال: " **كيف أصبحت يا حارثة ؟.**

قال: أصبحت مؤمناً حقاً، فقال عليه الصلاة والسلام: انظر ما تقول ! فإن لكل قولٍ حقيقة، فما حقيقة ما تقول ؟.

فقال: يا رسول الله ! عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، فكأني بعرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها.

فقال النبي ﷺ: أبصرت فالزم، عبدٌ نور الله الإيمان في قلبه " (٢).

---

(١) سورة الإسراء آية : (٨٥) .

(٢) مجمع الزوائد . باب في حقيقة الإيمان وكماله. ٢٢١/١

وأما أرواح الكافرين فهي تحب الركون إلى الأرض والتمسك بها، لتتمتع بملذاتها وشهواتها، وذلك بسبب كفرها، فصارت مثقلة بالملذات، فكلما أثقل الإنسان بدنه بالمآكل والمشارب وأخلد إلى الشهوات وكثرة النوم والراحة، ثقلت الروح وهبطت من عالمها العلوي، وصارت أرضية سفلية حيوانية وكأنها حبال تشدها إلى الأرض.

قال تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾ (١)

وبقدر الاهتمام بأحد هذين الأمرين أعني . الجثماني والروحاني . يسيطر أحدهما على الآخر، فإذا زيدت فيه الشهوات والملذات سيطر الجانب الحيواني على الروحاني، وإذا حفظت النفس وقيدت من غير إسراف سيطر الجانب الروحاني على الجانب الحيواني.

قال تعالى: ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾ (٢).

وقال الشاعر(٣):

والنفس كالطفل إن ترضعه شبَّ على حُبِّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم

ونفوس المؤمنين أكثر النفوس رضاً بالله تعالى، فإذا قرئت عليها القرآن خشعت واطمأنت.

قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ (٤).

---

(١) سورة الأعراف آية : (١٧٥) .
(٢) سورة الشمس آية: ٩.
(٣) قصيدة البردة للبوصيري.
(٤) سورة الزمر ، آية (٢٣) .

٤- القيمة الحقيقية للإنسان

إنَّ قيمة الإنسان البشري ليست بجسده ولكن بروحه، ولذلك أمر الله ملائكته بالسجود للإنسان بعد نفخ الروح فيه، ولم يأمرهم بالسجود للجسد المسوّى على هيئة الإنسان...، فالقيمة في حقيقة الإنسان لم تنشأ من قبضة الطين... أو الوجود الجسدي، وإنما نشأت قيمة الإنسان عندما تلبست به الروح فغيرت طبيعتها، فشفّت بالمعرفة والإدراك والإرادة والاختيار، ولم يعد فيها ما كان فيها من قبل من صفاقة وعتامة وانطماس.

والإنسان يكون على فطرته وهو مزاج مترابط من الجسد والروح، عند ما تمنحه الروح المعرفة والإدراك والاختيار، أي عندما تسيطر الروح على الجسد فتقوده إلى الخير، وعندما يكون الجسد هو الحاكم، فإنَّ إشعاعة الروح تُطمس وشفافيتها تزول، وتحجب المعرفة والإرادة والخير، فيتولد منه الشر (١).

نعم إن الجسد ليس شريراً بذاته، ولا منبوذاً ولا محتقراً، فقد خلقه الله وركب فيه خصائص فهو بحاجة إلى الطعام والشراب ليبقى حياً قائماً في الحياة الدنيوية، ولكن عندما يلغي الإنسان كيانه الروحي، وهو صاحب القيادة عندها ينشأ الشر، ويهبط الإنسان إلى مستوى أسوأ من مستوى الحيوان، لأنه ألغى طاقات روحه، قال تعالى: **﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾** (٢)

ولكن الله لطَفَ بالإنسان ورحمه، فأرسل إليه الرسل ليعرفوه بخالقه، ويردوه إلى المنهج السوي الصحيح.

---

(١) دراسات في النفس البشرية بتصرف . محمد قطب .ص ٣٣٢ .

(٢) سورة الأعراف آية : (١٧٩) .

٥- عوائق تأثر النفس البشرية بالقرآن

ما من نفسٍ بشرية يتلى عليها القرآن إلا وتتأثر به، ذلك أن الله سبحانه جعل لكلامه العظيم أثراً في النفوس.

وقد بين الشيخ محمد الغزالي ذلك الأمر بقوله: " إنَّ طبيعة هذا القرآن لا تلبث أن تقهر برودة الإلف، وطول المعرفة، فتتعرى أمامه النفوس، وتنسلخ من تكلفها وتصنعها، وتنزعج من ذهولها وركودها، وتجد نفسها أمام الله _ جل شأنه يحيطها ويناقشها، ويعلمها ويؤدبها، فما تستطيع أمام صوت الحق المستعلي العميق إلا أن تخشع وتصيخ "(١)

وقد تكون هناك عوائق وحواجز تمنع النفس البشرية من تأثرها بكلام الله تعالى، وذلك من خلال مركبات النقص التي وجدت في قلبه، فهناك الحسد والكبر والكفر، وهي آفات خطيرة وقع بها نفر من زعماء قريش فأعرضوا عن التأثر به فخسروا دنياهم وآخرتهم.

وعدم إيمان الكافرين عند سماعهم كلام الحق إنما بسبب العصبية العمياء، التي أعمت قلوبهم، ثم استحواذ إبليس عليهم، عن طريق الرئاسة والزعامة والحسد، فلم يستطيعوا دفعها لضعف إرادتهم.

أ- نموذج على عدم تأثر الكافرين بالقرآن بسبب الحسد:

لقد وصلت الجزيرة العربية إلى أعلى ذروة في البلاغة والفصاحة والبيان فمنها خرج أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان، وفيها سطع فرسان الشعر وأئمة الخطابة ، وهاهي آثارهم لاتزال تدرس في الجامعات والمدارس، وهم فرسان الكلمة، وقد نزل القرآن بلغة عربيةٍ لأنها أجمع اللغات دلالةً وبياناً،وأكثر اللغات تعبيراً ووصفاً، قال تعالى: ﴿ **الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآناً عربياً**

(١) نظرات في القرآن ص ١٢٧-١٢٩ .

لعلكم تعقلون ﴾ [1].

ومن هنا أحبَّ كفار مكة الاستماع لهذا القرآن البليغ العجيب في نظمه ومعانيه لأنه نزل بلغتهم، وقد تذوقوا العربية وعرفوها شعراً وخطابةً ونثراً، ووقفوا على معانيها وأسرارها، وعلى الرغم من كفرهم وعنادهم فقد أحبَّ زعماؤهم الاستماع لهذا الذكر لما أيقنوا من تأثيره في نفوسهم، وقد كانوا يتواصون بعدم الاستماع للقرآن كيلا يجذبهم بفاعلية بيانه، وقوة تأثيره.

كان رسول الله ﷺ يحب قراءة القرآن في الليل،فكان يخرج في هجيع الليل عندما يهدأ أهل مكة ويأوون إلى بيوتهم، فكان يستقبل بيت المقدس متخذاً الكعبة أمامه يقف بين الحجر الأسود والركن اليماني ثم يصلي ما شاء أن يصلي، ويقرأ القرآن بصوتٍ نديٍ فيه رقة وخشوع وتدبر لمعانيه وألفاظه، وكان هذا ورده في أكثر الليالي وذات مرّةٍ،وفي ليلةٍ من الليالي،أحبَّ أبو جهلٍ وأبو سفيان، والأخنس بن شريق أن يسمعوا القرآن، وكل واحدٍ لا يعرف شيئاً عن الآخر، فعندما خرجوا من بيوتهم ووصلوا إلى الكعبة، اتخذ كلٌ واحدٍ مجلساً يستمع فيه القرآن من النبي ﷺ دون علم بعضهم بعضاً ودون علم النبي ﷺ ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا، وكلٌ واحدٍ أصبح للآخر أستاذاً وناصحاً ومعنفاً، وقال بعضهم لبعضٍ: ويحكم لو رآكم فتيان مكة ورجالاتها لأوقعتم في نفوسهم شيئاً، فتعاهدوا أن لا يعودوا.

ولكن القرآن له تأثيرٌ في القلوب، وقوة في ميل القلوب إليه، وهذه الخصوصية امتاز بها القرآن عن غيره.

فلما كانت الليلة الثانية قال كل واحدٍ في نفسه لا بد أن يكونوا نسوا ما اتفقنا عليه من عدم الاستماع للقرآن، فخرج كلٌ واحدٍ دون علم الآخر يستمع للقرآن، فلما طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد أن

(١) سورة يوسف آية : (١-٢-٣) .

لا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما كانت الليلة الثالثة حدث أمر عجيب، كأنهم تناسوا ما تعاهدوا عليه، فإذا بالقرآن يجذبهم من بيوتهم، فخرجوا واتخذ كلٌ واحدٍ مجلسه دون علم الآخر، فباتوا يستمعون للقرآن مرةً أخرى، فلما طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

ما هي النتيجة التي وصلوا إليها ؟

في الصباح خرج الأخنس بن شريق من بيته فأتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها، فقال الأخنس: أنا والذي حلفت به كذلك !!.

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، فما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال: ماذا سمعت !! أي: – سمعت كلاماً عظيماً حكيماً ليس من كلام البشر –.

قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثيا على الركب وكنا كفرسي رهانٍ قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه ؟ فوالله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه ! (١)

ولنا أن نسأل ؟

ما الذي أخرج النفر الثلاثة من بيوتهم في هزيع الليل، وقد ملئوا قلوبهم كراهية وحقداً للإسلام ؟.

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٢٨ .

إنه القرآن الذي جذب قلوبهم، فإذا بهذه القوة العجيبة القاهرة الغالبة تخرج زعماء الكفر من بيوتهم، وليست مرةً واحدة، بل مرة تلو مرة، والساعات التي خرجوا فيها كانت في شدة ظلمة الليل لم يرهم أحد، ورغم الخطر الذي تعرضوا له، فلو رآهم أتباعهم لأحدث تغييراً في قلوبهم، لكن قوة تأثير القرآن وروعة بيانه أنستهم ذلك حتى شعروا بمتعةٍ روحيةٍ أضاءت لبعضهم قلوبهم يومين متتالين، ولكن عادت ظلمة الكفر فأطفأت هذا النور المتوقد، من خلال عصبيتهم الجاهلية، وحسدهم الأعمى فسقطوا في مستنقع كفرهم، وبعضهم بقي هذا النور يزيد شيئاً فشيئاً حتى كتب الله له الإسلام والإيمان.

ولكن لماذا لم يعلن أبو جهلٍ إسلامه ؟

إنها خسارة جسيمة وقع فيها أبو جهلٍ وقد أقام الحجة على نفسه، لقد تأثر قلبه بروعة آيات الله، وحطمت حواجز متعددة، ولكن ضعف إرادته، واتباع هوى نفسه، وحسده القاتم، حال بينه وبين إسلامه، وإرادة الله تعالى في ذلك قبل كل شيء قال تعالى:﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء**﴾ (١).

ب – رأي الجرجاني في عوائق التأثر بالقرآن

يقول الإمام الجرجاني: " فمنهم من قلّت شبهه، وتأمل الحجة حق تأملها ولم يستكبر فأسلم، ومنهم من كبرت شبهه، وأعرض عن تأمل الحجة حقّ تأملها "(٢).

(١) سورة القصص آية : (٥٦)

(٢) إعجاز القرآن للجرجاني ص ٢٥ .

ج- رأي سيد قطب في عوائق التأثر بالقرآن.

يقول سيد رحمه :"كان القوم تتأثر بالقرآن فطرتهم، وتجاذبهم إليه قلوبهم فيمانعونها، فجعل الله بينهم وبين الرسول حجاباً خفياً لا يظهر للعيون ولكن تحسه القلوب، فإذا هم لا ينتفعون به،ولا يهتدون بالقرآن الذي يتلوه، وهكذا كانوا يتناجون بما أصاب قلوبهم من القرآن، ثم يتآمرون على عدم الاستماع إليه، ثم يغلبهم التأثر به فيعودون، ثم يتناجون من جديد، حتى ليتعاهدون على عدم العودة ليحجزوا أنفسهم عن هذا القرآن المؤثر الجذاب الذي يخلب القلوب والألباب.

ذلك أن عقيدة التوحيد التي يدور عليها القرآن كانت تهددهم في مكانتهم وفي امتيازاتهم وفي كبريائهم.

ولقد كانت الفطرة تدفعهم إلى التسمع والتأثر ؛ والكبرياء تدفعهم عن التسليم والإذعان ؛ فيطلقون التهم على الرسول ﷺ يعتذرون بها عن المكابرة والعناد " (١).

وقد وصفهم ربهم بقوله: ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً * وجلنا على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً * وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولو على أدارهم نفوراً** ﴾(٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٢٢٣٢/٤ .

٢) سورة الإسراء آية : (٤٦) .

المبحث الرابع
أثر الإعجاز النفسي من خلال بعض سور القرآن

لقد جعل الله خاصية مؤثرة لكتابه العظيم في النفس البشرية، عند سماعه أو قراءة آياته، وهذا التأثر يختلف من نفسٍ لأخرى ومن موضع لآخر، وذلك حسب الاستعدادات البشرية، فقد تتأثر نفس من آية تليت على مسامعها في موطن من المواطن على الرغم من سماعها قبل ذلك، وهذا يرجع إلى طبيعة النفس وميولاتها وإصغائها بتدبر وتفكر، فقد يتأثر السامع بآية عن وصف الجنة والنعيم المقيم، بينما يتأثر آخر بآية عن وصف جهنم والنار المستعرة فيها، وقد يتأثر آخر عن آية في النظام الكوني والحقائق العلمية المصادقة لها، وقد يتأثر آخر بروعة الفصاحة والبلاغة والبيان.

وهذا سرُّ كتاب الله الذي تحدث إلى النفس البشرية بكافة ميولاتها وملكاتها المتنوعة سواء كانت عقلية أو قلبية أو وجدانية عاطفية، فسيطر على قلبها وملك مشاعرها.

١ – أثرُ القرآن في هداية بعض الناس

هناك صنف من الناس أراد لهم رب العالمين الهداية والخير والفلاح في الدنيا والآخرة فسمعوا القرآن يتلى عليهم فإذا قلوبهم ترتجف رهبةً لهذا الكلام، فكانت عقولهم أكبر من عاطفتهم، فأعلنوا إسلامهم من قوة تأثير القرآن.

أ– كان عمر بن الخطاب رجلاً قوي الشكيمة، شديداً في بنيته، معروفاً بكبريائه وسطوته في جاهليته، وقد استبعد الصحابة إسلامه فقالوا: لا يسلم عمر بن الخطاب حتى يسلم حماره، هكذا يرون من غلظته وقسوته استبعاد إسلامه، ولكن أثر القرآن يحطم هذه الحجب ويمزقها فتصبح أثراً بعد عين.

انطلقت دعوة من رسول الله ﷺ فقال:" اللهم أعزَّ الإسلام بأحب الرجلين

إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب: فكان أحبهما إليه عمر بن الخطاب " [1].

وينال ابن الخطاب ﷺ سرّ هذه الدعوة، ويخسرها أبو جهل، إنها إرادة الله ﴿ **إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾[2]، ثم قوة إرادته حيث حكَّم عقله، فتحرر من حبال جاهليته، فكانت من أسباب هدايته، لذلك وصفه رسول الله ﷺ بالملهم فقال: " **قد كان في الأمم مُحدَّثون، فإن يكن في أمتي أحدٌ فعمر بن الخطاب** "[3]، وبقي ذلك الشقي في مستنقع ضلاله وكبريائه لم يستطع أن يتحرر من حبال جاهليته بسبب ضعف إرادته، فأعماه إبليس عن سماع الحق، فجرّ جيشه بسبب تهوره إلى هزيمة مُرة قتل فيها شر قتلة.

سبب إسلامه:

بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي في هجيع الليل، بجوار الكعبة، تسلل عمر، وقال في نفسه [4]: لو أني استمعت من محمد الليلة فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ستار الكعبة، فجعلت أمشي رويداً، ورسول الله ﷺ يصلي يقرأ القرآن، حتى قمت في قبلته، مستقبله ما بيني وبينه إلى ثياب الكعبة فلما سمعت القرآن رقَّ قلبي، فبكيت، وكان رسول الله ﷺ يقرأ سورة الحاقة ؛ وعمر ينصت معجباً بهذه الألفاظ والمعاني، حتى قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون** ﴾

فقلت في نفسي: والله شاعر كما قالت قريش فقرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **إنه لقول رسولٍ كريم * وماهو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون** ﴾

قال فقلت: كاهن.

فقرأ ﴿ **ولا بقول كاهنٍ قليلاً ما تذكرون** ﴾ ؛ فقلت إذاً من أين ؟، فقال:

---

(١) رواه ابن حجر في الفتح ، وقال : صححه ابن حبان .فتح البارئ ٤٨/٧ .

(٢) سورة القصص آية : (٥٦)

(٣) روا البخاري في صحيحه .رقم ٣٦٨٩ ، كتاب فضائل الصحابة ٤٢/٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤١٧/٤ .

﴿ **تنزيلٌ من ربِّ العالمين** ﴾ (١).

فقلت: وكيف يكون صادقاً فربما يختلق محمد شيئاً من عنده، فقرأ رسول الله: ﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل *لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين** ﴾ (٢).

وانظر إلى قول عمر ﷺ: فلما سمعت القرآن رقَّ قلبي فبكيت.

وهناك رواية أخرى: وهي المشهورة أنه عندما اقتحم بيت أخته غاضباً، فبطش بزوج أخته سعيد وعندما سمع صوتاً، قال: ما هذه الهينمة التي سمعت ؟ قالا له: ما سمعت شيئاً، ثم ضرب أخته، فقالت له: نعم قد أسلمنا وآمنا به، ثم ندم على ضربه أخته، قال: أعطني الصحيفة التي سمعتم تقرؤون، فعندما تطهر، قرأ صدراً من سورة طه فكلما قرأ آية ذعر وصاح، ورمى الصحيفة من يده، ثم رجع وأخذها، وكلما مرَّ باسمٍ من أسماء الله ذعر.

فهدأ غضبه وسكن، وانطفأت جمرة الغضب المستعرة، فإذا بالقلب يشع فيه نور القرآن، فيقول: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه (٣).

وقد سرى روح القرآن في هذه الأرواح البشرية فأثر فيها، وجعلها مذعنةً لقبول الحق.

قال الله تعالى:﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا** ﴾ (٤).

فإذا سرت هذه الروح في الأجسام البشرية دبت فيها الحياة وانتعشت بهذا النور العظيم، وحلّ فيها الربيع لأنَّ القرآن صار ربيعه الذي يرتع فيه.

أ- لقد سمع جُبير بن مطعمﷺ النبي ﷺ يصلي المغرب وهو يقرأ سورة الطور

---

(١)الآيات من سورة : (٣٨: ٤٣) .

(٢)الآيات من سورة : (٤٤: ٤٦)

(٣) السيرة النبوية بتصرف . للدكتور محمد أبوشهبة ٣٥٤/١ .

(٤) سورة الشورى آية : (٥٢)

فلما وصل إلى قوله:﴿ **أم خلقوا من غير شيءٍ أم هم الخالقون** ﴾[١].

قال جبير: –كاد قلبي أن يطير – وكان ذلك سبب إسلامه بعد[٢].

إنَّ القرآن له روح عظيمة الشأن ، جليلة القدر، فهو ربيع القلوب، وجلاء الأحزان، وذهاب الهموم والغموم.

ولذلك جاء في الحديث أنَّ النبي ﷺ قال: " ما أصاب عبداً همٌ ولا حَزَن، فقال اللهم إني عبدُك ابنُ عبدِك ابنُ أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكْمُك عدلٌ فيَّ قضاؤُك أسألك بكل اسمٍ هو لك سميتَ به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونورَ صدري وجلاء حُزني، وذهابَ همي وغمي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً.قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلمهن، فقال: بلى ينبغي لمن سمعهنَّ أن يتعلمهنَّ"[٣].

قال ابن القيم عند هذا الموضع: " الربيع: المطر الذي يحي الأرض ؛ شبَّه القرآن به لحياة القلوب به، وكذلك شبهه الله بالمطر، وجمع بين الماء الذي تحصل به الحياة، والنور الذي تحصل به الإضاءة والإشراق.

ولما كان الصدر أوسع من القلب كان النور الحاصل له يسري منه إلى القلب، لأنه قد حصل لما هو أوسع منه، ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب تسري الحياة منه إلى الصدر ثم إلى الجوارح، سأل الحياة له بالربيع الذي هو مادتها، ولما كان الحزن والغم يضاد حياة القلب واستنارته سأل أن يكون ذهابها بالقرآن فإنها أحرى أن لا تعود.

وأما إن ذهبت بغير القرآن من صحة، أو دنيا، أو جاهٍ، أو زوجةٍ، أو

---

(١) سورة الطور آية (٣٥) .

(٢) رواه البخاري في صحيحه رقم ٧٦٥ ، كتاب الآذان ٢٤٧/٧ .

(٣) رواه أحمد في مسنده ٣٩١/١ ، وابن حبان في صحيحه رقم ٢٣٧٢ .

ولدٍ، فإنها تعود بذهاب ذلك." (١) ا هـ.

ب- أثر القرآن في الدعوة إلى الله وإسلام أهل المدينة بسببه:

قال علماء السيرة: " فتحت الأمصار بالسيوف، وفتحت المدينة بالقرآن "(٢).

لقد بقي رسول الله ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس لخالقها، وتعرض مع أصحابه لصنوف عدة من الابتلاءات والشدائد والمحن، وعذب أصحابه رجالاً ونساءً على يدي كفار مكة، بل منهم من مات تحت التعذيب إلى أن أذن الله لهذه الدعوة بالخروج من دائرةٍ ضيقة إلى دائرةٍ أوسع، فأرسل أهل المدينة كتاباً إلى رسول الله ﷺ يقولون به: " ابعث إلينا رجلاً يفقهنا في الدين ويقرئنا القرآن " (٣)

اختار لهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير ﷺ لهذه المهمة الجسيمة،حيث يريد أن يمثل رسول الله ﷺ هناك.

غادر مصعب ﷺ مكة مهاجراً، ونزل في بيت الصحابي أسعد بن زرارة، وبدأ عمله في الدعوة، وهي تعليم أهلها القرآن، فكان سلاحه الدعوي القرآن الكريم، فاتبع طريقة أخذها من رسول الله ﷺ ، حيث يأخذ خمس أو عشر آيات، يقرئها عليهم ثم يحفظونها، ثم يعملوا بها، فانخلعت عرى الجاهلية وتحطمت أوثانهم التي عبدوها عقوداً متعددة، ووقف لأول مرة الخزرجي والأوسي جنباً إلى جنب ناسين ماضيهم الأليم، حيث انتهت قصة الثارات والحروب والغزوات، وولّى يوم بعاث بلا رجعةٍ وقامت بينهم روابط المحبة والسلام والإسلام، وبذرت العقيدة في قلوبهم، فإذا هم كالملائكة في صور البشر، وكل ذلك بأثر القرآن الذي غير نفوسهم، وصحح مفاهيمهم وقد سُمي مصعب بالمقرئ والقارئ، وأصبح لبيوت المدينة دوي في تلاوة القرآن.

---

(١) الفوائد لابن القيم ص/ ٥٠ .

٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢١٧/١ .

(٣) السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة ٤٤٠/٢ .

ومعلوم أن الآيات المكية التي كانت تتنزل، والتي قرأها مصعب على مسامعهم كانت تدعو إلى العقيدة الصحيحة، وتحطيم أصنام الوثنية، وتعريف الإنسان بالمهمة التي لأجلها خُلق، وتوضيح دلائل قدرة الخالق أمام مخلوقه.

أثّر القرآن في رجالهم ونسائهم وأطفالهم حتى أصبح يسمع القرآن في كلِّ بيت من بيوت المدينة، وعند كل أسرة من أسرها، وقد أسلم على يد مصعب رجلان عظيمان من كبار سادة أهل المدينة هما: أُسيد بن حضير، والرجل الآخر الذي كان أكثر زعامةً هو سعد بن معاذ سيد الخزرج.

نزل مصعب بن عمير ﷺ عند أسعد بن زرارة [1]، فخرج معه حتى أتيا حائطاً من حيطان بني ظفر، فسمع أسيد بن حضير وسعد بن معاذ بخبر بمصعب، فقال سعد لأسيد: انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، فإنه لولا أسعد بن زرارة لكفيتك ذلك.

أخذ أسيد حربته ثم أقبل عليهما، فلما رآه سعد بن زرارة، قال: هذا سيد قومه وقد جاءك فاصْدُقِ الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، فوقف عليهما متشتماً فقال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟! اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادي الواثق من سماحة دعوته: أوَ تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُف عنك ما تكره؟!

قال أسيد: أنصفت ثم ركز حربته، وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قالا له تغتسل فتطهَّر وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهرّ ثوبيه وتشهّد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من

(١) السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة ٤٤١/١

قومه وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعدٌ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم !!

فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فو الله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثتُ أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك [1].

فقام سعد مغضباً وأخذ الحربة، ثم خرج إليهما فوقف متشتماً، قال أسعد لمصعب: لقد جاءك . والله . سيد من وراءه من قومه إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع ؟ فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فقال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه أول سورة الزخرف:

﴿ حم *وَالْكِتَابِ الْمُبِين * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ* وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ* أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ* وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ *وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ* فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾ [2]

قالا: فعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله. فاغتسل ثم تطهر ثم تشهد شهادة الحق، ثم رجع إلى قومه، فقال: يا بني عبد الأشهل . وهو سيدهم . فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة.

ومن ثمرات دعوة أهل المدينة بالقرآن أن أقيمت النواة الأولى للإسلام،

---

(١) أراد سيد إثارة الحمية في قلب سعد بن معاذ ليأتي إلى أسعد فيسمع من مصعب ، فيكون سبباً في إسلامه .

(٢) الزخرف آية : (١-٨)

فأقيمت صلاة الجمعة لأول مرة في الإسلام، وكان لمصعب ﷺ فضل ذلك العمل، وعندما انتهت مهمة مصعب رجع، وكان عدد المسلمين الذين تهيئوا للذهاب إلى مكة ومبايعة رسول الله ﷺ سبعين رجلاً، حتى عرفت ببيعة العقبة الثانية، وهي التي رسخت الإسلام في المدينة، وأقامت قواعده فيها.

ج– وقد أثرت آية من كتاب الله في قلب عاصٍ، فأحدثت في قلبه وحياته انقلاباً، فحولته من قاطع طريقٍ إلى عالمٍ من علماء الأمة، علا صيته وانتشر ذكره في الآفاق، وجاءت توبته بعد سماعه القرآن في هجيع الليل، والآية قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾(١).

كان الفضيل بن عياض في بدء حياته من قطَّاع الطرق، قد عشق جاريةً فواعدته ليلاً، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع قارئاً يقرأ: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ** ﴾.

فرجع بعد أن أحسّ بروح القرآن يسري في جسده، فارتجف قلبه، وجفّ ريقه، ثم قال: بلى والله قد آن !.

فآواه الليل إلى خربةٍ وفيها جماعة من المسافرين، فقال بعضهم لبعضٍ: انتبهوا واحذروا، فإن فضيلاً يقطع الطريق.

فقال الفضيل: أواه ! أراني الله أسعى في معاصي الله، قوم من المسلمين يخافونني ! اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي إليك جوار بيتك الحرام.

يا لروعة القرآن كيف يأخذ بقلوب الحيارى التائهين في صحارى الذل والمعصية فيحولهم إلى هداة مهتدين، وعلماء ربانيين، إنه القرآن العظيم، سرُّ الله في الأرض، ادَّخره لأمة الإسلام.

---

(١) سورة الحديد آية : (١٦) .

إنَّ القرآن الكريم يذكر القلوب برب العالمين، فيحجزها عن الوقع في المعصية قال تعالى: ﴿ **فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾ (١)، فكلماته القوية وحجته البالغة، وروحه المهيمنة السارية، عوامل مؤثرة في تذكير الإنسان، وهذا لايكون إلا لمن تأمل القرآن بقلبه، قال تعالى: ﴿ إن في ذلك لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (٢).

٢- تأثير القرآن على النفوس الكافرة:

كان رسول الله ﷺ حريصاً على إسماع القرآن للعرب المشركين، وذلك لما يعلم من قوة تأثيره في قلوبهم، ﴿ **وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث** ﴾ (٣).

لقد حاول كفار مكة محاربة القرآن بكل وسائلهم التي يملكونها ولكنهم لم يفلحوا فلجأوا إلى وسيلة من وسائلهم الماكرة، فأمروا الناس برفع أصواتهم عند تلاوته لئلا يسمعه المشركون فيذعنوا لقوة سلاطنه، فيقودهم إلى الإسلام والإيمان به.

قال تعالى عن حالهم عند سماعهم للقرآن: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ (٤) فإذا سمعوا القرآن يتلى من الرسول ﷺ أو أحدٍ من أصحابه كان ينتهي بهم الأمر إلى المهاترة والتصفيق والتصفير.

وهناك مواقف أثر القرآن في نفوس الكافرين وهموا بالإسلام لولا الموانع التي بينهم وبين إسلامهم فمن هذه المواقف:

أ- الموقف الأول

جاء عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ يكلمه في هذا الأمر الذي إليه

(١) سورة ق آية : (٤٥) .
(٢) سورة ق آية : (٣٧) .
(٣) سورة الإسراء آية : (١٠٦) .
(٤) سورة فصلت آية : (٢٦) .

دعا، وقد عرض عليه بعض الإغراءات المادية من مالٍ وملكٍ.

فقال رسول الله ﷺ : قد فرغت يا أبا الوليد، قال نعم، قال: فاستمع مني، قال أفعل، فتلا رسول الله قول الله: ﴿ **حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ *كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ*وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ*** ﴾ (١).

ومضى رسول الله ﷺ يقرؤها، فلما سمع عتبة تغير لون وجهه، ورقّ قلبه بعض الشيء، فأنصت بأذنيه، واضعاً يديه خلف ظهره حتى وصل رسول الله ﷺ إلى السجدة، فسجد وعتبة يلحظ بعينيه.

وفي رواية فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾

أمسك عتبة بفيه، وناشده الله الرحم أن يكف عنه !!(٢)

لقد أثر القرآن في نفس عتبة، وانظر كيف تغير وجهه، فقد سرى روح القرآن في قلبه، حتى غلب عليه، فجعله يلقي يديه خلف ظهره مستنداً عليهما، يلحظ بعينه رسول الله ﷺ، والآيات التي تلاها رسول الله ﷺ كان تبين هلاك الأمم الذين أعرضوا بعد إنذار رسلهم، فخاف من روح القرآن حتى وكأن الآيات تدق مسامعه، بل وكأن الإنذار والعذاب الذي حلّ بعادٍ وثمود نازلٌ به وبقومه لا محالة لذلك تغير وجهه، ثم وضع يده على فيّ الرسول ﷺ، قائلاً له ناشدتك الله أن تسكت، فقد خيل له أن الإنذار واقع به وبقومه لا محالة.

ونلاحظ كيف لاحظ قومه التغير الذي طرأ على وجهه من فاعلية القرآن في نفسه، فقالوا نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به،

(١) سورة فصلت آية : ١-١٣ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣٠٥/١ . السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ٣٠٨/١ .

فقالوا: ما وراءك يا أبا الوليد[1].

قال: والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، والله ليكونن لقوله الذي سمعت من نبأ،ثم احتبس عنهم.

فقال أبو جهل: يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته انتقلوا بنا إليه. فأتوه،فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما حسبنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره، فإن كنت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن محمد. فغضب وأقسم بالله لا يكلم محمد أبدا وقال: لقد علمتم أني أكثر قريش مالاً.

وقد انطفأت شعلة الإيمان في قلبه أمام موجة كفره وضلاله كفراً وعناداً، ولو تحكم بإرادته وخرج عن عناده لكان خيراً كبيراً سيحققه.

ب- الموقف الثاني:

جاء الوليد بن المغيرة إلى الرسول ﷺ، فقرأ عليه قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[2].

فرقَّ قلبه، وكاد أن يسلم، فوصف القرآن بوصف بليغ، فيه ذوقه الأدبي، وحسه البياني المتألق، فهو ابن العربية وفي ربوعها نشأ، وعلى لسانها درج، ولم يكن عليه سلطان، ولكن فطرته انطلقت لتعبر عن أحاسيسها بهذا القرآن العظيم قال فيه:"والله إن له لحلاوة،وإن عليه لطلاوة،وإن أعلاه لمثمر ،وإن أسفله

(١) كان يمتاز برجاحة العقل ، فقد قال في مكة عندما استنفر أبو جهل قريشاً لقتال محمد ﷺ :ياقوم اعصبوها برأسي وقولوا : جبن عتبة بن ربيعة ، وكان ينهى عن القتال ، وعندما سار الجيش ، كان راكباً على جبلٍ أحمر ينهى أبا جهل عن قتال المسلمين ، فقال رسول الله ﷺ : ((إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا .)) ، ولكن لم ينفعه ذلك فقتل في المعركة . البداية والنهاية ج٣/٢٦٨ .

(٢) سورة النحل أية : (٩٠)

لمغدق،وإنه الحق يعلو ولا يعلى عليه،وما هو بقول البشر"[1].

ولكن مما يؤسف أن هذه الومضة الإيمانية لم تستمر، فالتقاليد المتسلطة، والعصبية الجاهلية، وإرضاءُ أتباعه، كانت حبالاً تشده من كل طرف لم يقدر أن يقطعها، ففكر ماذا يقول في القرآن، إن فطرته تحركت وكادت أن تسلم، وذوقه الأدبي في كلام الله دخل مشاعره، ولكن الحبال شدته إلى قومه وأتباعه فقال مقالة يناقض فيها نفسه: إن هذا إلا سحرٌ يؤثر.

وفيه نزل قول الله تعالى:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا *وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا *وَبَنِينَ شُهُودًا *وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا *ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ *كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا *سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا *إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ *فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ *ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ *ثُمَّ نَظَرَ *ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ *ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ *فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ *إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ *سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [2].

ج- الموقف الثالث

ومن تأثير القرآن وإعجازه النفسي أنهم سجدوا إجلالاً لرب العالمين عندما سرت فاعليته في قلوبهم، وهم كفار مشركون، ولكن قوة سلطان القرآن ملكت قلوبهم، فلم يستطيعوا دفعها، فسجدوا مذعنين.

عندما نزلت سورة النجم، قرأها رسول الله ﷺ بجوار الكعبة، وزعماء مكة يستمعون، فلما وصل إلى قوله: **﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى* وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى*وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى*وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى* فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى* فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى* هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى* أَزِفَتِ الآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ* وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ* وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ* فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾** [3]، سجد رسول الله ﷺ ومن

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٢٨ .
(٢) سورة المدثر آية (١١: ٢٦)
(٣) سورة النجم آية : (٥٠: ٦٢) .

معه من أصحابه، وعندما سمع المشركون الآيات تتلى على مسامعهم، أثرت في قلوبهم وهزت أجسادهم، ففزعوا وخافوا، فتحركوا بحركة فطرية مستسلمين، فخروا سجداً لرب العالمين.

ولنا أن نسأل كيف سجد المشركون، ولماذا ؟ ألم يكفروا به، وقالوا عنه إنه سحر يؤثر.

ولكن هيهات أن يهربوا من تأثير القرآن وسلطانه القاهر وحجته الدامغة، فصاروا ضعفاء أمام إعجازه وفاعليته، فتهافتوا على نوره كتهافت الفراش على النور.

يقول سيد رحمه الله: " إنها لصيحة مزلزلة الذي ترتعش له القلوب، سجدوا تحت هذه المطارق الهائلة التي وقعت على قلوبهم، والرسول يتلو عليهم القرآن لا يملكون أن يقاموا وقع هذا القرآن، ولا أن يتماسكوا لهذا السلطان، ثم أفاقوا بعد فترةٍ فإذا هم في ذهول من سجودهم كذهولهم وهم يسجون "[1]. اهـ.

شيءٌ عجيب من هؤلاء المشركين أن يسجدوا عند سماعهم لهذا القرآن، وقد كفروا وكذبوا به، وهاهم الآن يستسلمون لروعة بيانه وقوة إعجازه التي أثرت في نفوسهم، إنه سلطان القرآن الذي قهرهم فصاروا،مذهولين مستسلمين.

إن الإنسان منا ليرجف قلبه، وتهتز مشاعره خوفاً من الله عند سماع هذه الآيات تتلى من قارئ ماهرٍ، أوتي صوتاً حسناً مؤثراً، فكيف إذا كان قارئ الآيات محمداً ﷺ الذي تلقى القرآن من ربه، وهو أكثر الناش خشيةً له، فإن التأثير يكون أقوى، وهذا ما حدث لكفار قريش حيث سجدوا تأثراً به.

كان إعراض المشركين عن القرآن والهدي إعراضاً مصطنعاً، بدليل أن قلوبهم كان يصيبها رعشةٌ ورجفة عند سماعهم آيات الله تتلى وهاهم الآن سجدوا استجابة لقلوبهم التي لا يملكون أنفسهم إزاءها، بل كانوا معترفين بصدق النبي محمد ﷺ.

التعليق على المواقف السابقة

(١) في ظلال القرآن ٣٤١٩/٦ .

على الرغم أن القرآن أثر في نفوسهم، وأضاء ومضة قلوبهم، ولكنهم عادوا إلى الكفر والتكذيب به، وذلك لأسباب منها:

١ – الاستكبار والعناد.

ففي موقف عتبة بن ربيعة، منعه الاستكبار والعناد من اتباع محمد ﷺ على الرغم أنه كان سيداً حليماً في قومه، وهي آفات سيئة مهلكة، تقتل صاحبها إذا لم يستطع ردها والتخلص منها، ولو أنه تخلص من هذه الآفات لكان خيراً كبيراً سيحققه، وترى كم من الأتباع سيقتدون به، فيكون سبباً في إسلامهم وهدايتهم.

٢ – التعصب الأعمى والارتباط بالعادات الجاهلية الموروثة

وأما موقف الوليد بن المغيرة فقد خفق قلبه لدا سماعه القرآن، وقال فيه مقالة تدل على تذوقه للقرآن، وتأثره النفسي بآياته، ولكن التقاليد المتسلطة، والعصبيات الموروثة، وإرضاء قومه غلبت عليه، فجاءه أبو جهل من نقطة الضعف التي حاول من خلالها صرف الوليد عن التأثر بالقرآن، حيث قال له: " إن قريشاً جمعت لك المال ليعينك على كبر سنك، ويزعمون أنك ذهبت إلى محمد تسأله من فضل طعامه، فغضب الوليد، وقال ألم تعلم أني من أكثرهم مالاً وولداً، ثم قال في القرآن قولاً يرضيهم، فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر" (١).

(١) السيرة النبوية ١لابن هشام /٣١١ .

المبحث الخامس
الإعجاز النفسي في قلوب غير العرب

من إعجاز القرآن الكريم تأثيره في النفوس البشرية مؤمنها وكافرها، وقد أمر الله نبيه ﷺ إسماع المشركين القرآن قال تعالى: ﴿ **وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله** ﴾ (١). وقراءته ليس خاصة على المسلمين بل على الناس جميعاً، قال تعالى :﴿ **وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث** ﴾(٢)

ومعلوم أن روح القرآن القوية لابد أن تعطي أثرها في قلوب المشركين ولو كانوا عجماً لا يفهمون، وهذا من معجزات القرآن حيث إن سلطانه القوي مؤثرٌ يغلب ولا يغلب ويعلو ولا يعلى عليه.

١ – الرسول ﷺ يكتب القرآن لملوك العالم

عندما أرسل الرسول الله ﷺ الرسائل والكتب إلى ملوك العالم كان يكتب فيها القرآن العظيم.

فقد كتب إلى هرقل عظيم الروم قول رب العالمين:﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ (٣).

وكتب إلى أسقف الروم في القسطنطينية، فكتب الصحابة له سورة من القرآن بناء على طلب من الأسقف، فقال هذا الذي نعرف كتاب الله، فأسلم وأسرَّ إسلامه، فعندما أعلن إسلامه قتل وأحرق (٤).

٢ – وعندما هاجر الصحابة إلى الحبشة، أرسلت قريش وفداً إلى النجاشي ليسلمهم هؤلاء، فرفض طلبهم فسعوا بينهم وبين النجاشي وقالوا له:إن هؤلاء

(١) سورة التوبة آية : (٤) .
(٢) سورة الإسراء آية : (١٠٦) .
(٣) سورة آل عمران آية : (٦٤) ، انظر فتح الباري رقم ٧ .
(٤) اعرف نبيك محمداً ﷺ ص ٨٤ . نقلاً عن مجلة المباحث الشرقية ٨٧/١٠ .

يزعمون أنَّ عيسى ليس ابن الله.

فعندما امتثلوا أمامه في قصره، وكان بجانبه الأساقفة قد نشروا مصاحفهم، فسأل الصحابة عن هذا الدين الذي قد فارقتم به قومكم، ولم تدخلوا ديني ولا في دين أحدٍ من هذه الملل، فتقدم جعفر بن أبي طالب، فأجاب وأفاد.

فقال النجاشي: هل معك شيءٌ مما جاء به عنِ الله من شيء ؟.

قال جعفر: نعم.

قال النجاشي: فاقرأه علي.

فقرأ جعفر صدراً من سورة ﴿ **كهيعص** ﴾؛ فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ؛ ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدةٍ(١).

فأنزل الله فيم قرآناً ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ *وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ (٢).

وانظر إلى بكاء النجاشي حتى اخضلت لحيته من البكاء، وكذلك بكاء أساقفته، وكان ذلك بتأثير روح القرآن الذي سرى في أجسادهم.

وهل يكون النجاشي يعرف العربية ؟

لقد ذكرت كتب السير أنه كان بينهم ترجمان، وهذا يدل على أنه لم يكن يعرف العربية، ولكن القرآن سرى في هذه القلوب، فخشعت ورقت، ثم سرى من القلب إلى العيون فأجرى منها الدموع (٣).

٣- وقد أثر القرآن في هداية رجل نمساوي وهو (ليوبولد فانس) فصار اسمه

---

١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٠

(٢) سورة المائدة آية (٨٢- ٨٣) ، ٣٢٨ .

٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٠

بعد ذلك ((محمد أسد)) فجعله داعياً ومفكراً إسلامياً يدعو إلى دين الله عز وجل بإخلاصٍ وصدقٍ، ولعل إسلامه يكون حجة على الغرب وحضارته، وليهنأ بهذا الإسلام، يقول:

" في ذات يومٍ من سنة ١٩٢٦ كنت راكباً مع زوجتي في قطار برلين تحت الأرض، فوقعت عيني اتفاقاً على رجلٍ أنيق الملبس، كان على ما بدا لي تاجراً تبدو عليه آثار النعمة والثراء، على ركبتيه حقيبة صغيرة جميلة وفي إصبعه خاتم ماسي، وأخذت أفكر بتكسل كيف أن مظهر هذا الرجل الحسن كان يعكس الرخاء الذي كان المرء يقع عليه في كل مكانٍ من أوربة في تلك الأيام، إلا أنني عندما نظرت إلى وجهه خيل إلي أنني لم أكن أنظر إلى وجهٍ سعيد، فقد بدا لي قلقاً: لاقلقاً فحسب، بل شقي بصورة حادة.

وعندما عدت مع زوجتي إلى البيت ألقيت نظرةً على مكتبي، وكان عليه نسخة مفتوحةٌ من القرآن كنت أقرأ فيها من قبل، وبصورة آلية رفعت الكتاب لأضعه جانباً، ولكن ما أن هممت بإغلاقه حتى وقعت عيني على الصفحة المفتوحة أمامي وقرأت: ﴿ **ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر. كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون. كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم. ثم لترونها عين القين. ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم** ﴾.

واعتراني الصمت لحظة، وإني لأعتقد أن الكتاب كان يهتز في يدي ، ثم قلت لزوجتي: أصغي إلى هذا أليس جواباً عما رأيناه في القطار ، لقد عرفت الآن بصورةٍ لاتقبل الجدل أن الكتاب الذي كنت ممسكاً به في يدي كان كتاباً موحى من الله، فبالرغم من أنه وضع بين يدي الإنسان منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً فإنه توقع بوضوح شيئاً لم يكن بالإمكان أن يصبح حقيقةً إلا في عصرنا هذا المعقد الآلي.

لقد عرف الناس التكاثر في جميع العصور والأزمنة، ولكن هذا التكاثر لم ينته قط من قبل إلى أن يكون مجرد اشتياق إلى امتلاك الأشياء، وإلى أن يصبح ملهاةً، حنين لا يقاوم إلى التملك والعمل، والاستنباط أكثر فأكثر. اليوم

أكثر من أمس، وغداً أكثر من اليوم: عفريت راكبٌ على أعناق الناس يسوق قلوبهم بسوطٍ إلى الأمام نحو أهدافٍ تتلألأ عن بعدٍ ولكنها تنحل إلى لا شيئية زرية خسيسة حالما تصبح في متناول اليد، وذلك الجوع، ذلك الجوع النهم إلى أهدافٍ جديدة لا تنتهي ينمو في قلب الإنسان: ﴿ **كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم** ﴾.

ثم سعيت إلى صديقٍ مسلم لي هندي، كان في ذلك الحين رئيساً للجالية الإسلامية الصغيرة في برلين، وأعلمته برغبتي في اعتناق الإسلام، فمد يده اليمنى نحوي وضعت يدي اليمنى فيها، وبحضور شاهدين قلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وعندئذ قال صديقي المسلم: لقد كان اسمك حتى الآن ليوبولد ، وكلمة ليوبولد يونانية: معناها أسد إذن سندعوك من الآن فصاعداً: محمد أسد " (١).

٣- **وكان تأثير القرآن سبباً في إسلام عالم الرياصيات الدكتور جفري لانج مؤلف كتاب" صراع من أجل التسليم للإيمان.**

وقد ذكر تأثير القرآن على نفسيته، فعاش في نقلة إيمانية كبيرة، وتغيير في مسار حياته، فانتقل من الكفر إلى الإيمان بعد أن أثّر القرآن فيه، وأحيا روحه التي عاشت تحت مطارق الكفر والإلحاد والشك والريب فترة زمنية، وفي ذلك يقول في كتابه قصة إسلامه(٢):

" أنت لا تستطيع قراءة القرآن ببساطة، إلا إذا كنت جاداً فى قراءته، إما أن تكون مستسلماً له، أو أن تكون محارباً له، القرآن يرد بقوة، يجيب بشكل مباشر، بشكل شخصى، يناقش، ينتقد، يضع العار عليك، يتحدى، من البداية يثير معركة، وأنت فى الجانب الآخر منها ".

لقد وجد نفسه فى معركة مثيرة: " **وجدت نفسى فى الجانب الضعيف، فمؤلف القرآن يعرفنى أكثر من معرفتى لنفسى.**"

---

(١) الطريق إلى الإسلام . محمد أسد ٢٤٩ .

(٢) الصراع من أجل الإيمان ص ٣٤- ١٢٠

انبهر لانج بالقرآن الكريم، وفي ذلك يقول:

"قد يستطيع الرسام جعل عيني شخص ما في بورتريه تبدو و كأنها تنظر إليك أينما ذهبت، ولكن من ذا الذي يستطيع كتابة نص ثابت يرد على تساؤلاتك اليومية أياً كانت، في كل يوم، كنت أكون العديد من التساؤلات حول موضوعات مختلفة، وبطريقة لا أعرفها، كنت أكتشف الإجابة في اليوم التالي بين السطور، لقد بدا وكأنّ مؤلف هذا الكتاب يقرأ أفكاري، ويكتب الإجابة المناسبة بحيث أجدها عند قراءتي التالية، لقد قابلت نفسي بين الصفحات."..

ثم يكمل فيقول: " إلى هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام، الدليل الأعظم إلى الله، الصمد، القيوم، المعين، الله الذي من حُبّه للبشر أنزل القرآن هدىً لهم، وكمحيط واسع عميق، يغريك بالنزول فيه، ومن أعمق إلى أعمق في أمواجه الرائعة، تغرق فيها، وبدلاً من أن تغرق في ظلمات هذه الأمواج، إذا بك تغرق في محيط من الوحي والرحمة، كلما قرأت القرآن الكريم، أو صليت صلاة الإسلام، يفتح في قلبي باباً كان مغلقاً، وأشعر بأني غمرت في رقة عارمة، الحب أصبح أكثر ثبوتاً من الأرض التي تحت قدمي؛ إنها القوة التي أعادت إليّ نفسي، وجعلتني أشعر بالحب، لقد أصبحت سعيداً بما فيه الكفاية، أن وجدت الإيمان بدين أعقله، وما قبل كنت أتوقع أن يلمس هذا الدين شغاف قلبي."

لم أكن أعرف في حياتي معنى للحب، ولكنني عندما قرأت القرآن شعرت بفيض واسع من الرحمة والعطف يغمرني، وبدأت أشعر بديمومة الحب في قلبي، فالذي قادني إلى الإسلام هو محبة الله التي لا تقاوَم"

"الإسلام هو الخضوع لإرادة الله، وطريق يقود إلى ارتقاء لا حدود له، وإلى درجات لا حدود لها من السلام والطمأنينة، إنه المحرك للقدرات الإنسانية جميعها، إنه التزام طوعي للجسد والعقل والقلب والروح.

"**القرآن هذا الكتاب الكريم قد أسرني بقوة، وتملّك قلبي، وجعلني أستسلم لله، والقرآن يدفع قارئه إلى اللحظة القصوى، حيث يتبدّى للقارئ أنه يقف بمفرده أمام خالقه، وإذا ما اتخذت القرآن بجدية فإنه لا يمكنك قراءته ببساطة،**

فهو يحمل عليك، وكأن له حقوقاً عليك ! وهو يجادلك، وينتقدك ويُخجلك ويتحداك ... لقد كنت على الطرف الآخر، وبدا واضحاً أنّ مُنزل القرآن كان يعرفني أكثر مما أعرف نفسي ...

لقد كان القرآن يسبقني دوماً في تفكيري، وكان يخاطب تساؤلاتي ... وفي كل ليلة كنت أضع أسئلتي واعتراضاتي، ولكنني كنت أكتشف الإجابة في اليوم التالي.

لقد قابلت نفسي وجهاً لوجه في صفحات القرآن"بعد أن أسلمت كنت أُجهد نفسي في حضور الصلوات كي أسمع صوت القراءة، على الرغم من أني كنت أجهل العربية، **ولما سُئلت عن ذلك أجبت: لماذا يسكن الطفل الرضيع ويرتاح لصوت أمه ؟ رغم أنه لا يفهمه، إنَّ القرآن يعطيني الراحة والقوة في الأوقات الصعبة.** (١)

إنه إعجاز تأثيري يدخل في النفس البشرية، ويذيقها حلاوة الإيمان، ويبين لها سبل الهداية والطريق المستقيم، فيشعرها بالإنس والطمآنينة والرضا، ويوصلها إلى ان السعادة كلها بالإيمان والتسليم لله عزوجل.

(١)الصراع من أجل التسليم للإيمان ص ٣٤– ١٢٠ ، وانظر كتابه حتى الملائكة تسأل ص ٢٣٤ .

المبحث السادس
أثر القرآن النفسي على الرسول ﷺ وصحابته وتابعيهم

لقد خشع الوجود كله هيبةً لكلام الله عز وجل قال ﷻ:﴿ **لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (١) لو نزل هذا القرآن على الجبل لخشع لوعده وتصدع لوعيده، وخاف أن لا يؤدي حقه في تعظيم القرآن، وقد أعطى الله البشر عقولاً تفكر وتتدبر، فكيف لا ترغب في وعده، ولا تتأثر من وعيده.

وكل إنسانٍ يتأثر بتلاوة كتاب الله حسب منزلة الله في قلبه، وكلما ارتقى قلب المؤمن وازداد قرباً من الله كلما ازداد أثَّر كلام الله في قلبه.

لقد كانت قلوب سلف الأمة بيضاء نقية تنعكس فيها آيات رب العالمين وكل ذلك بسبب قربهم من رسول الله ﷺ، وارتفاع منزلة الله في قلوبهم، فكانوا يخشون الله في السر والعلن، وكانوا يراقبون قلوبهم، فالوحي كان يتنزل بينهم، وأي خلل يرتكبونه، يكشفه الله لهم.

وكان الرسول ﷺ أكثر الأمة فهماً وتدبراً لكتاب الله،فكان مرآةً تنعكس فيها آيات القرآن.

وقد وصفت ألصق الناس وأعرفهم به زوجه عائشة وصفاً دقيقاً فقالت: كان خلقه القرآن (٢).

أي: المرأة الناصعة التي تنعكس فيها آيات الله.

كان يقرأ القرآن غضاً طرياً نديأً فيخشع الكون لقراءته ؛ قرأه على المشركين فوقفوا منصتين، وقرأه على الصحابة فأحسوا بخوف وأصابتهم قشعريرة،

---

(١) سورة الحشر آية : (٢١)

(٢) صحيح مسلم كتاب الصلاة/باب جامع الصلاة الليل ومن نام عنه أو مرض ١/ ٥١٣ – ٦٤٦

فازدادوا إيماناً وثباتاً.

وقرأه على الجن بعد رجوعه من الطائف، فتزاحموا منصتين لتلاوته.

﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ** ﴾ (١).

وانظر إلى جمال الكلام بقولهم: "**أنصتوا**" فقد مس القرآن قلوبهم واطمأنوا به، وقد شعروا بروعة تأثيره، فظلوا منصتين مدة القراءة كلها، وعند انتهاء رسول الله ﷺ من التلاوة هرعوا إلى قومهم منذرين، يحملون المشاعر والأحاسيس إليهم، قائلين: ﴿ **قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ (٢)،فالقراءة والتلاوة كانت إبلاغاً من الله لهم.

١- مظاهر أثر القرآن على رسول الله ﷺ

أ- البكاء عند قراءة أو سماع القرآن

كان رسول الله ﷺ يتأثر بالقرآن تأثراً كبيراً، فهو أعلم الناس بكتاب ربه، ومن تأثره أنه قرأ آية في ليلة من الليالي ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك** ﴾ (٣)فكان يرددها في الليلة كلها حتى أصبح.

ومرةً قال لعبدالله بن مسعود:" اقرأ عليّ القرآن "، قال: أقرأه عليك، وعليك أنزل.

فقال: "إني أحب أن أسمعه من غيري ".

فقرأ سورة النساء، فعندما قرأ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ شهيداً وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾ (٤).

قال: حسبك.

---

(١) سورة الأحقاف آية (٢٩) .

(٢)سورة الأحقاف آية (٣٠) .

(٣) سورة المائدة آية : (١١٨) ، الحديث روا ابن ماجه في سننه رقم ١٣٥٠.

(٤) سورة النساء آية : (٤١) .

قال عبدالله بن مسعود ﷺ: فنظرت إلى رسول الله ﷺ فإذا عيناه تذرفان(١).

ب- ظهور الشيب في شعره تأثراً بآياته

وفي آخر حياته ظهر الشيب في لحية رسول الله ﷺ ، فرأى أبو بكر ﷺ ذاك التغير مما دفعه لمعرفة السبب، أهو تقدم السن، أم ماذا !؟.

قال: يا رسول الله قد شبت ؟

قال: شيبتني هود وأخواتها(٢).

فانظر كيف أثر القرآن في قلبه حتى طرأ التأثر على شعره فغير سواده إلى بياض خوفاً من عذاب الله.

ومعنى أخواتها سورة التكوير، والمرسلات، والواقعة، والنبأ، وفي رواية يقول:شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت.

وقد وردت روايةٌ أخرى قال: شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت (٣).

ففيها إخبارٌ عن الأمم السالفة التي طويت تحت الثرى، فجعلها الله عبرةً لمن يعتبر، وذلك بسبب إصرارها على كفرها فذاقت وبال أمرها، وكان عاقبة أمرها خسراً، كذلك فيها الوصف البليغ لنزع الروح من الجسد، وهي الساعة التي يودع الإنسان دنياه منطلقاً إلى عالم آخر.

فإذا قرئت هذه السور على النفوس المؤمنة شعرت بخشيةٍ في قلوبها، وتحركت الدمعة في عيونها، فكيف إذا تلاها أعرف الناس بربه وبقرآنه وهو النبي ﷺ، لذلك لا عجب ما حدث له ﷺ.

ج- تكراره سوراً معينة في مناسبات خاصة

---

(١) صحيح مسلم رقم ٢٤٧ .

(٢) رواه الترمذي في سننه رقم ٣٣٥١ .

(٣) تحفة الأحوذي برقم ٣٤١٨

كان يقرأ سوراً معينة في مناسبات خاصة، وذلك بغية تذكير الناس، ففي فجر يوم الجمعة كان يقرأ سورة السجدة والإنسان، وذلك لما اشتملت السورتان من ذكر المبدأ والمعاد، وفيهما قصة خلق ابن آدم، ودخول الجنة والنار، ففي قراءتهما في كل أسبوع موعظة مؤثرة، حيث ينشغل الإنسان في أيامه كلها في ماله وتجارته ودنياه، فتأتي قراءة السورتين في نهاية الأسبوع تذكرة وموعظة له، فيظل متذكراً نشأته الضعيفة، مستعداً ليوم القيامة، فلا يأخذه الغرور بمتاع الدنيا وزخارفها.

وروي أنه كان يقرأ سورة (ق) في كل جمعة حتى إن بعض الصحابة حفظها من في رسول الله ﷺ لكثرة ترددها، فعن بنت الحارث بن النعمان ؛ قالت: " ما حفظت (ق) إلا من فِي رسول الله ﷺ. يخطب بها كل جمعة ". قالت: "وكان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً "(١).

وهي سورة شملت مواضيع هامة، مثل ابتداء الخلق وسكرات الموت، والبعث والنشور، والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب.

١) رواه مسلم في صحيحه . كتاب الجمعة رقم ٨٧٣ .

٢- مظاهر أثر القرآن النفسي على الصحابة والتابعين.

أ – سرعة التأثر بآياته:

نزل قول الله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** ﴾[١] فتأثر ثابت بن شماس من هذه الآية فبقي معتكفاً في بيته لم يخرج لمجلس النبي ﷺ ، لأنه رفيع الصوت، فعندما سئل قال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار حبط عملي، ففقده رسول الله ﷺ فانطلق القوم إليه، فقالوا له تفقدك رسول الله ﷺ فقال لهم أنا أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول، فأخبروا رسول الله ﷺ فقال: لا بل هو من أهل الجنة [٢].

خرج عمر بن الخطاب ﷺ يعس المدينة ذات ليلةٍ، فمر بدار رجلٍ من المسلمين فوافقه قائماً يصلي فوقف يستمع لقراءته، فقرأ ﴿ **وَالطُّورِ * وكِتَابٍ مَّسْطُو رٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ *يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا * فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [٣]، قال: قسم ورب الكعبة حق، فنزل عن حماره واستند إلى حائطٍ، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه [٤].

كان الأحنف بن قيس رحمه الله – وهو من أخص أصحاب سيدنا علي ﷺ – مرة جالساً، فإذا به يسمع إنساناً جالساً قريباً منه يقرأ القرآن، فإذا هو يقرأ: ﴿**لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ [٥]، فانتبه، كأنه كان نائماً، قال: ﴿ **لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ** ﴾، هل في القرآن حديث عني ؟ عليَّ

(١) سورة الحجرات آية : (٢) .
(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٢٠٦/٤ .
(٣)سورة الطور الآيات ١_١١.
(٤)انظر: تفسير ابن كثير ٢٤٠/٤.
(٥)سورة الأنبياء آية :١٠ .

بالمصحف، عليَّ بالمصحف، فحضر المصحف، فصار يقلِّب صفحات يفتحه من غير قصد، فإذا به يمر بقوم يقول الله تبارك وتعالى عنهم: **﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾** (١)، قال: اللهم لا أجد نفسي في هؤلاء، ومر بقوم يصفهم الله تعالى ويقول تعالى: **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾**(٢)، قال: اللهم لا أجد نفسي في هؤلاء، أنا أصغر من هؤلاء، أنا أصغر من هؤلاء، ثم مر بقوم يقول الله تبارك وتعالى عنهم: **﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾** (٣)، قال: اللهم إني لا أجد نفسي في هؤلاء، ثم قلّب الصفحات فإذا به يمر بقوم يصفهم الله تبارك وتعالى بصفات معاكسة فيقول: **﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾** (٤)، قال: اللهم إني أعوذ بك من هؤلاء، ولكن أين أنا ؟ أين صفتي ؟ ويقلب الصفحات ويقلب، حتى مر بقوله تعالى: **﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** (٥). قال: اللهم إني هاهنا، اللهم إني هاهنا(٦).

هكذا فهم سلف الأمة كتاب ربهم، فكانوا مرآة منعكسة لآيات ربهم يستعرضون كتاب ربهم آية آية على أنفسهم وأفعالهم وأقوالهم فيون فيها حياتهم كاملة فما وجدوا في ذلك خللاً أصلحوه لأن القرآن يملك روحاً مؤثرة، قال تعالى:

---

(١) سورة المؤمنون آية : ٣ .
(٢) سورة الفرقان آية :٦٣ .
(٣) سورة السجدة آية :١٦.
(٤) سورة المدثر آية : ٤٣ – ٤٨ .
(٥) سورة التوبة آية :١٠٢ .
(٦) مختصر قيام الليل . لمحمد بن نصر المروزي ص ٢٣، ونفحات الإيمان للشيخ أبي الحسن الندوي ص ٧٨ .

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْأِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١)

وقد أمر الله بحسن الاستماع للقرآن قال تعالى: ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** ﴾ (٢).

ومما يعين على الخشوع التدبر والتفكر، وإنك تلحظ من نفسك ربما قرأت آية من كتاب الله مراراً دون أن تحدث فيك أثراً، ولكن تسمعها مرةً في مجلس من المجالس، أو خلف إمامٍ في صلاة من الصلوات، فإذا بهذه الآية قد أحدثت أثراً في قلبك ربما يستمر أكثر من يوم، ولعل حسن الصوت مع التدبر والجلوس في مجالس فيها يذكر الله تعين على هذا التدبر ، وأعظم الأماكن التي يتدبر فيها آياته بيوت الله، قال تعالى: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)** ﴾ (٣)والجار والمجرور معلق في قوله تعالى: ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ (٤)فمن كان يبحث عن هذا النور فإنه موجود في بيوته العامرة، فكيف إذا قرئ القرآن في مهبط الوحي بجوار الكعبة، فهناك تسكب العبرات، ويرتفع مؤشر الإيمان، ويمتلئ القلب حباً وإقبالاً على الله، وكيف إذا كان الحال في ليالي رمضان !.

ب- القرآن يصنع أمة تستهين الموت في سبيل الله

كانت الخنساء . تماضر . من الشاعرات البليغات، فهي أرقى شعراء العرب، وأحزن من بكى وندب في شعرها.

وقد قتل أخوها من أبيها صخر فحزنت عليه الدهر، وقالت فيه رثاءً يعد

(١) سورة الشورى آ ية :٥٢ .
(٢) سورة الأعراف آية : (٢٠٤) .
(٣) سورة النور آية : (٣٦) .
(٤) سورة النور آية : (٣٥) .

من أصدق الشعر، وكان مما رثته بحرقة وزفرة:

يُـذكِرُني طلـوعُ الشـمسِ صَـخراً وأذكـرُه لكـلِّ غـروبِ شمـسِ
فلـولا كثـرةُ البـاكين حـولي علـى إخـوانهم لقتلـتُ نفسـي
ولكـن لا أزال أرى عجـولاً ونائحـةً تنـوح ليـومِ نحـسِ
ومـا يبكـين مثـلَ أخـي ولكـنْ أُسـلِّي الـنفسَ عنـه بالتأسِّـي
فقـد ودَّعـتُ يـوم فـراقِ صـخرٍ أبي حسّـانَ لـذّاتي وأُنسِـي
يا لهفـي عليـه ولهـف أمّـي أُيصـبحُ في الضّـريح وفيـه يُمسـي

* * *

ولما أسلمت وقرأت القرآن أحست بروعة بيانه، وقوة إعجازه، فهدأت نفسها، وسلمت أمرها لربها، وتصديقاً لإيمانها قدمت أولادها الأربعة شهداء في معركة القادسية، فلم تنزل لها دمعة، ولم تتحسر، ولم تقل بيتاً يدل على حزنها، وقالت قولتها والزمان يردد ما قالت: "الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من الله أن يجمعني وإياهم في مستقر رحمته "[1].

كان السلف يعتكفون على قراءة القرآن نهماً وتدبراً، فصاروا به فرسان النهار رهبان الليل.

كان عبد الله بن مسعود ﷺ أول من جهر بالقرآن في مكة بعد رسول الله ﷺ ، وكان أبغض شيءٍ على كفار مكة أن يجهر بالقرآن بجوار بيت الله، فقام هذا الفتى الذي كان يغلي القرآن في قلبه وعروقه، حيويةً ونشاطاً، واستبسالاً في سبيل الله، فجاء في وقت الضحى، وجلس عند المقام بجوار الكعبة، ثم صدع بالقرآن، فانطلق صوته يسبح في الفضاء ويدوي بين جدران البيت، وزعماء قريش في أنديتهم يسمعون هذا الصوت الجهوري العذب الجميل وهو يقرأ ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ يرفع بها صوته: ﴿ **الرحمن علم القرآن** ﴾، فكان يهز قلوبهم من حسن صوته، فانتفض زعماؤهم من أنديتهم كأنهم حمرٌ مستنفرة فرت من

---

١) الكامل في التاريخ / ابن الاثير: ج١ ، ص٥٠٧ .

قسورة، فجالت وانتفضت من مجلسها، وتقدمهم أبو جهل، فلطمه على أذنه حتى أدماها: فقام عبد الله بن مسعود ﷺ وكان الأذى في سبيل الله أحب شيءٍ إلى قلبه، وقال لأصحابه: لو أردتم أن أعود فأقرأه مرةً أخرى لعدت.

ج- الاستفتاح بتلاوة القرآن قبل المعارك استنصاراً به:

لما صلى سعد بن أبي وقاص ﷺ الظهر أمر الغلام الذي كان ألزمه عمر ﷺ القراءة أن يقرأ سورة الجهاد – أي الأنفال – وكان المسلمون يتلونها كلهم، فقرأ على الكتيبة سورة الجهاد، فقرئت في كل كتيبة، فهشت قلوب الناس وعيونهم، وعرفوا السكينة مع قراءتها (١).

وكان ﷺ يعلم أصحابه الاستنصار بآيات القرآن.

يقول الصحابي: وجهنا رسول الله ﷺ في سرية فأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا: ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً** ﴾ (٢)فقرأناها فغنمنا.

وانظر إلى جمال وصيته ﷺ لأبي ذر بتلاوة القرآن.

قال أبو ذر ﷺ: قلت: يا رسول الله أوصني قال: " **عليك بتقوى الله ؛ فإنه رأس الأمر كله قلت يا رسول الله زدني قال: عليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك في الأرض وذخر لك في السماء** " (٣).

(١) حياة الصحابة ٦٨٥/٣ .

(٢) سورة الأنبياء آية : ١٠ ، والحديث رواه النووي في الأذكار .رقم ١٩٤/٢٥ .

(٣) قال السيوطي : حسن ، انظر : فيض القدير رقم ٢٣٩٧ ،٣/ ٧٦ .

المبحث السابع
الإعجاز النفسي للقرآن في شفاء الأجساد من العلل والأمراض

أنزل القرآن على قلب النبي محمدٍ ﷺ، وعالج فيه قضايا هامة، ولم يترك القرآن شيئاً من أمور الحياة إلا بينه، قال تعالى: ﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾ (١).

وقد أنزل فيه قوانين البشر وما يصلح لحياتهم وعاداتهم ما يغنيهم عن ذلك عن قوانين البشر.

وفي القرآن شفاء للنفوس البشرية من القلق والتوتر العصبي، فهو كلام الله الذي يسري في النفوس فيحدث أثراً فيها، قال تعالى:﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ (٢).

إن فيه الرحمة والسكينة والطمأنينة والأمن والاستقرار للنفوس الحيارى، قال تعالى: ﴿ **قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاءٌ** ﴾ (٣)، فإذا خالط القرآن بشاشة القلوب سرت روحه في هذه القلوب، وعادت إليه الحياة من جديد.

لقد تزاحم المرضى على عيادات الأطباء النفسانيين، وعاشوا بقلق واضطراب، ولو أنهم جربوا كتاب الله لهدأت نفوسهم، وشعروا باليقين والرضا.

١ – أثر القرآن على قلوب العجم.

أجرى الدكتور أحمد القاضي (٤) رئيس مجلس إدارة معهد الطب الإسلامي للتعليم والبحوث في أمريكا بحثاً مثيراً، مفاده أن ٨٠% من الأشخاص الذين طبقت الدراسة بسماعهم للقرآن الكريم سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين،

---

(١) سورة الأنعام آية : (٣٨) .
(٢)سورة الإسراء آية : (٨٢) .
(٣)سورة فصلت آية : (٤٤) .
(٤) مجلة المجتمع العدد ١٢١٦ .

وسواءٌ كانوا يعرفون العربية أو لا يعرفونها ظهرت عليهم تغيرات وظيفية تدل على تخفيف درجة التوتر العصبي التلقائي، وقد أمكن تسجيل ذلك بأحدث الأجهزة العلمية وأدقها.

وقد قام بتجربة، فأخذ ثلاث مجموعات من الناس، وهم من الأمريكان الذين لا يتكلمون اللغة العربية ولا يفهموها، ووصلهم بالمقاييس الطبية الدقيقة كقياس ضغط الدم، ونبضات القلب، وتخطيط الدماغ، وتخطيط العضلات، وقياس درجة التعرق، وقرأ على المجموعة الأولى آيات من القرآن الكريم، وقرأ على المجموعة الثانية كلاماً باللغة العربية عادي، والمجموعة الثالثة تركها في حالة استرخاء من غير قراءة، فوجد أن تغيرات وظائف الأعضاء، من ارتفاع ضغط الدم، وتقلص العضلات، وانتصاب الشعر، والتعرق، تحسنت كثيراً للذين سمعوا القرآن الكريم، وهم لا يفهمون معناه!! مقارنة بالمجموعات الأخرى.

قال: قد يكون هذا صدفة، فنقل المجموعات الأخرى إليه وأ سمعها القرآن الكريم، فطرأ عليها نفس الاستجابة والتغيرات الإيجابية. فإذاً القرآن فيه سرٌ **﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) ﴾** (١)

فهذا السر في تأثير القرآن في الأجساد البشرية ولو لم تفهمه، وقد ثبت علمياً أنَّ الإيمان يرفع من الجهاز المناعي، وهناك دراسات الحديثة أثبتت أن الإيمان يعزز الجهاز المناعي، لأنَّ المرض سواء النفسي أو العضوي يصاب به الإنسان لضعف الجهاز المناعي.

وهذا من فاعلية القرآن وقوة تأثيره على النفوس، فمهما تقدمت البشرية في

(١)سورة الحشر آية : (٢١) .

طبها واختراعاتها تبقى مفتقرة إلى كتاب خالقها.

٢- القرآن نوع من أنواع الطب الروحاني

فإذا قرئ القرآن بصدقٍ ويقينٍ على المريض، دفعت هذه القراءة الأمراض والعلل بقوة فاعليته، قال النبي ﷺ: " **خير الدواء القرآن** " (١).

وعن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " عليكم بالشفائين العسل والقرآن " (٢)

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها، وامرأة تعالجها أو ترقيها، فقال: عالجيها بكتاب الله (٣).

والرقية إنما دعاء والتجاء إلى الله تعالى، لأنه رب الناس مذهب الباس، فالقرآن نوعٌ من أنواع الطب الروحاني المعنوي الإلهي.

٣- خاصية سورة الفاتحة في الرقية.

قال ابن القيم: " ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواصٌ ومنافع مجربة، فما الظنُّ بكلام رب العالمين الذي فضُله على كلِّ كلامٍ كفضل الله على خلقه،فهو الشفاء التام، والعصمة النافعة، والنور الهادي، والرحمة العامة الذي لو نزل على جبلٍ لتصدع من هيبته وعظمته وجلالته " (٤).

وروي أن النبي ﷺ كان إذا أوى فراشه ينفث بالمعوذتين ويمسح بهما وجهه (٥).

وهناك أدعيةٌ مأثورة عن النبي ﷺ تؤكد الاستشفاء بها، وهي ما تعرف بالرقية المأثورة، والقرآن كله شفاءٌ وكله دواءٌ، وأعظم شيءٍ فيه سورة الفاتحة التي

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه ٤٥٥/٢ برقم (٣٥٠١) : باب الاستشفاء بالقرآن .
(٢) سنن ابن ماجه ٣٤٣/٢ . رقم ٣٥١٠ .
(٣) الموطأ على الزرقاني ٣٢٨/٤ .
(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد ١٧٦/٤ .
(٥) رواه البخاري . انظر : فتح الباري ١٠٧/١١ .

لم ينزل في القرآن ولا في أي كتابٍ سماوي سابق مثلها.

قال ابن القيم: " فهي متضمنة لجميع معاني كتب الله المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب، وهي الله، والرب، والرحمن، وإثبات المعاد، وذكر التوحيدين: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، فهي أعظم الأدوية الشافية الكافية" (١).

وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيدٍ الخدري، قال انطلق نفرٌ من أصحاب النبي ﷺ في سفرةٍ سافروها حتى نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيدُ ذلك الحي من أحياء، فسعوا له بكل شيء لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعلهم أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهطُ ! إن سيدنا لدغ، وسعينا له بكل شيءٍ لا ينفعه، فهل عند أحدٍ منكم من شيءٍ ؟ فقال بعضهم: نعم والله إني لأرقي، ولكن اسضفناكم، فلم تضيفونا، فما أنا براقٍ حتى تجعلوا لنا جعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه، ويقرأ: الحمد لله رب العالمين، فكأنما أُنشط من عقال، فانطلق يمشي ومابه قَلَبَةٌ، قال فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي رسول الله ﷺ، فنذكر له الذي كان،فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول لله ﷺ، فذكروا له ذلك،**فقال:** " **وما يدريك أنها رقية** "، **ثم قال:** " **قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهماً** " (٢).

٤- تجربة ابن القيم في تأثير القرآن على نفسه

قال ابن القيم: " وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أموراً عجيبة، ولاسيما مدة المقام بمكة، لأنه كان يعرض لي الآلام مزعجة، بحيث تكاد تقطع الحركة مني وذلك في أثناء الطواف وغيره، فأبادر إلى قراءة الفاتحة وأمسح

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ١٧٦/٤ .
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٧٨/١٠ في الطب : باب النفث في الرقية .

بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط، جربت ذلك مراراً عديدةً، وكنت آخذ قدحاً من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مراراً فأشربه فأجد به من النفع مالم أعهد مثله في الدواء، والأمر أعظم من ذلك، ولكن بحسب قوة الإيمان وصحة اليقين " [١].

وهناك آياتٌ تسمى آيات السكينة إذا قرأها المسلم مخلصاً قلبه أذهب عنه الهم والشدة في حياته وهي:

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[٢]**﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾** [٣] **﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾** [٤]، **﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾**[٥].

قال ابن القيم: " وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة،وسمعته يقول في واقعةٍ عظيمةٍ جرت له في مرضه، تعجز العقول عن حملها من محاربة أرواحٍ شيطانية ظهرت له في حال ضعف القوة: قال: فلما اشتد عليّ الأمر قلت لأقاربي ومن حولي: اقرؤوا آيات السكينة، ثم أقلع عني ذلك الحال "[٦].

٥- تدواي رسول الله ﷺ بالقرآن

---

(١) مدارج السالكين ٦٦/١ .
(٢) سورة البقرةآية: ٢٤٨ .
(٣) سورة الفتح آية :٤ .
(٤) سورة الفتح : ١٨ .
(٥) سورة الفتح آية : ٢٦ .
(٦)مدارج السالكين ٦٦/١.

ولما سحر النبي ﷺ جاءه جبريل ونزل عليه بالمعوذتين، فجعل كلما قرأ آيةً منهما انحلت عقدة حتى انحلت العقد كلها.

وجدير بكل مسلم أصابه مرض من كسر أو نزيف، أوي أي مرض عضوي أن يأخذ بهذه الوصفة الطبية الإلهية، دون إهمال الدواء الدنيوي الذي بينه الأطباء، بل عليه أن يأخذ بالدوائين، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال:"إن الله تعالى: " **أنزل الداء والدواء وجعل لكلِّ داءٍ دواءً، فتداووا ولا تداووا بحرامٍ.**"(١).

وفي روايةٍ أخرى: " **إن الله لم ينزل داءً إلا أنزل له شفاءً، علمه من علمه، وجهله من جهله** "(٢).

فالإسلام دعا إلى الأخذ بالطب الجسماني، وهو مشروع لابد من الأخذ به، حتى مع وجود الطب الروحي وهو القرآن الكريم والتعاويذ النبوية الصحيحة، فكلاهما من جملة الأسباب التي أمرنا بالأخذ بها وهي لا تنافي القدر.

وكلما كان الراقي قوياً في دينه، معتقداً بهذه الآيات، يملك يقيناً راسخاً كلما كانت رقيته أكثر فعالية، وكذلك الأمر بالنسبة لحال المرقى، فإذا كان انفعاله بهذه الرقية أكثر كلما كانت النتيجة أكثر.

قال ابن القيم:

" إن قوى الرقية وتأثيرها بحسب الراقي، وانفعال المرقي عند رقيته، وهذا أمر لا ينكره طبيب فاصلٌ عاقلٌ مسلم " (٣).

ونستخلص مما تقدم أن الإعجاز النفسي بالقرآن له تأثير في النفوس البشرية، وذلك بعلاجها من الأمراض والأسقام، وإذا قرئ على مريض، فإنه يحدث أثراً في علاجه من المرض، ولكن ينبغي تحقق شروط الرقية، وهي:

---

(١) أخرجه أبوداود في سننه رقم ٣٨٧٤ .

(٢) رواه أحمد في مسنده رقم ٣٥٧٨ ، وابن ماجه ٣٤٣٨ .

(٣) زاد المعاد ١٨٧/٤ .

أ- اعتقاد الراقي ويقينه بالله عز وجل وبكلامه وهو القرآن الكريم.

ب- تفاعل المرقي عند رقيته واعقاده بالقرآن وصدق توجهه إلى الله.

المبحث الثامن
القرآن يستر صاحبه من أذى المشركين

١- مظاهر ستر القرآن.

أ- الحجاب على قلوب الكافرين.

يقول الله تعالى: ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً** ﴾ (١).

إن كتاب الله ذو سرٍّ عظيم، تلاه رسول الله ﷺ على المشركين، فاستمعوا إليه طواعية، وأحدث أثراً في قلوبهم، وكادوا يعلنون إسلامهم، ولكن حقدهم وكفرهم غطى نور تأثرهم، فرجعوا من حيث أتوا، ولما علم الله عدم تأثرهم بالقرآن عاقبهم من جنس فعلهم، فزادهم كفراً وعناداً عند سماعهم القرآن، فلم يعد مؤثراً في قلوبهم.

وعلى هذا يكون الحجاب في هذه الآية حجاباً معنوياً، وهو الطبع على قلوبهم حتى لا يفقهوا ولا يدركوا ما فيه من الحكمة. قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً** ﴾ (٢) أي: حجاباً عن هدايتهم بهذا القرآن لأن الله علم حالهم وإصرارهم على عنادهم فكان الجزاء من جنس العمل.

ولنا أن نسأل كيف يكون القرآن هادياً للذين آمنوا، وحجاباً عن الكافرين.

والجواب: هناك قابل وفاعل، فالفاعل هو القرآن والقابل هو الإنسان، وتأثر الإنسان بالقرآن حسب جهازه الاستقبالي، فإذا كان يبحث عن الحق بصدق وإخلاص، يسر الله له ذلك فاستمع لآيات الله تتلى، فأزالت عنه الغشاوة، وطرقت قلبه فشعر بأثرها يسري في عروقه.

---

(١) سورة الإسراء آية (٤٥) .

(٢) سورة الإسراء آية (٤٥) .

وأما إذا كان جهازه الاستقبالي غير متزنٍ، أصابته لوثة الكفر، فاستحوذ عليه الشيطان فأنساه الله، ثم أطلق العنان لنفسه أن تتبع الشهوات من المعاصي والآثام واستكبرت نفسه عن قبول الحق كانت آيات الله المتلوة عليه حجاباً فزادته مرضاً وشكاً.

إنَّ الإنسان ينفخ على يديه في الشتاء ليشعر بالحرارة والدفء، ثم ينفخ على كأس الشاي الحار ليبرد، فالفاعل واحد ولكن القابل متقلب، فهو يبحث عن حرارة ليدفئ برد يديه، فلما نفخ عليهما شعر بالحرارة فيهما، وتأثر كأس الشاي بالبرودة عندما كان الكأس دافئاً، لأنه يبحث عن وسيلة لتبريده.

وكذلك آيات الله عندما تتلى على مسامع المؤمنين والكافرين،وصدق قول رب العلمين: ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾ (١).

انظر إلى المشهد العظيم في صلاة التراويح في المسجد الحرام وهم يرتلون القرآن بصوت ندي يهز القلوب، ويملؤها خشيةً وهيبةً لهذا الدين، ثم انظر إلى يوم الختم وأنت ترى مليوني مسلم يؤمنون بصوتٍ واحد،وقد تساقطت الدموع من عيونهم وهم يقفون بين يدي خالقهم.

بالله عليك هل وجدت منظراً أكثر رهبةً ورغبةً من هذا المنظر، إنه منظر تحار الأقلام في وصفه، وتحار الألسن في تصويره.

فأي إنسان يرى هذا المشهد ولا يؤمن، وأي إنسان أعطاه ربه عقلاً ولساناً وعيناً يرى ويتحسس هذا المشهد فلا يرق قلبه، ولا تدمع عينه.

وقد وصف كلامه: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ (٢).

---

(١) سورة القصص آية : (٥٦) .
(٢) سورة الزمر آية : (٢٣) .

إن الذين يخشون ربهم بالغيب ويتقونه، ويعشون في وجل ورهبة مع رجائه ورحمته يشعرون بقشعريرة وارتعاش ولكن بعد هذا الوجل والارتعاش يشعرون بأنس المناجاة، ولذة القرب من الرب سبحانه وتعالى ؛ فعند ذلك يشعرون بطمأنينة قلوبهم.

والله تعال هو الذي يحرك القلوب للهداية والضلال بحسب إشراقاتها وحبها للخير وميلها إلى ذلك.

ب- حفظ قارئ القرآن من كيد الكافرين.

ويمكن أن يكون الحجاب على أبصارهم ، بحيث يحال بين المشركين وبين قارئ القرآن، فلا يبصرونه فهو في حفظٍ وأمانٍ من الله، وقد وردت شواهد من السنة ما يكون قريباً لهذا المعنى منها:

لما نزلت سورة ﴿ **تبت يدا أبي لهب** ﴾ أقبلت أم جميل وفي يدها حجر ولها ولولة، وهي تقول: مذمَّماً عصينا * وأمرها أبينا * ودينه قلينا *

والنبي ﷺ قاعدٌ في المسجد ومعه أبو بكر ﷺ ؛ فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك !

قال رسول الله ﷺ: إنها لن تراني، وقرأ قرآناً فاعتصم به كما قال: فوقفت على أبي بكر ﷺ، ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر، أخبرت، أن صاحبك هجاني ! فقال: لا وربِّ هذا البيت ما هجاك،فولّت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها [1].

فانظر كيف أعمى الله بصرها بقراءة النبي ﷺ، فلم تره، وهو جالس بجانب صاحبه أبي بكر ﷺ، وهو من حفظ الله له، قال تعالى: ﴿**وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً** ﴾ [2]

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٦٧٠ .
(٢) سورة الإسراء آية : (٤٥) .

وعندما اجتمع المشركون على باب النبي ﷺ يوم الهجرة متآمرين على قتله، وكان فيهم أبو جهل فقال لهم: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوه كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها (١).

فخرج رسول الله ﷺ من بينهم فأخذ حفنةً من تراب في يده ثم قال: نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم، فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يتلو قول الله تعالى: **﴿ يس* وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ* إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِين *عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ* تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ* لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ* لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ* إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ *وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لايُبْصِرُونَ ﴾** .

ولم يبق منهم رجلٌ إلا وقد نثر على رأسه تراباً، فغطّ القوم في نوم عميق لم يستيقظوا إلا على حرّ الشمس (٢).

و في طريق هجرته وقد لحقه سراقة بن مالك ليأتي برسول الله ﷺ حياً أو ميتاً، ثم يفوز بمائة من الإبل، وهي مكأفأة تذهب العقول، وتجعل الإنسان يلهث وراءها، فعندما وجدهم في الطريق واقترب منهم، حدث أمر عجيب لم يتوقعه أبداً.

يقول سراقة: فساخت يدا فرسي حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها، فاقتربت منهم حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفت(٣).

ولما بعث رسول الله ﷺ سبعين صحابياً وهم القرّاء إلى حي قبائل من

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٠٥ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) البداية والنهاية ٣/١٨٥ .

قبائل نجد ليعلموهم القرآن، فعندما وصلوا إلى بئرٍ معروفة تعرض لهم حي من أحياء العرب وهم رعل وذكوان، فغدروا بهم فقتلوهم وكانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل، وكان من أبرز من قتل هو حرام أخ أم سليم، فعندما استوقفوهم في الطريق تآمروا عليهم ، فأتاهم حرام فقال: أتؤمنوني أبلغكم رسالة رسول الله ﷺ إليكم؟ قالوا: نعم. فجعل يحدثهم وأومأوا إلى رجل لهم ،فأتاه من خلفه فطعنه حتى أنفذه بالرمح فقال: " الله أكبر فزت ورب الكعبة ".

وهي كلمة لها عمقٌ واسع فالإنسان يستطيع أن يجامل بها أثناء حديثه مع الناس، ولكن عند نزع الروح ومجيء ملائكة الموت، لن يعرف المجاملة أبداً، فهناك تكشف الحقائق، وقوله لهذه الكلمة إنما رأى النعيم المقيم الذي أعده لهؤلاء القرّاء، فكأنه تراءت أمامه صورة الجنة والحور العين والنعيم، فعند ذلك قالها فرحاً: " الله أكبر فزت ورب الكعبة ".

والذي قتله هو جبّار بن سلمى، وكان كافراً، فقال: طعنت رجلاً منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه، فنظرت إلى سنا الرمح حين خرج من صدره، فسمعته يقول: " فزت ورب الكعبة "، فقلت في نفسي: ما فاز ! ألستُ قتلتُ الرجل، قال: سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: الشهادة، فقلت: فاز لعمر الله [1].

كذلك أكرم الله هؤلاء القراء ومنهم عامر بن فهيرة الذي قتل في هذه الموقعة، فرآه عمر بن أمية الضمري، فقال: لقد رأيته بعدما قتل رفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض.

وقد يبعث الله جنوداً من خلقه لحماية أهل القرآن من نجس المشركين وذلك تكريم للقرآن الذي جمعوه في صدورهم.

أرسل رسول الله ﷺ نفراً من أصحابه إلى قبائل العرب في نجد، وكان معهم عاصم بن ثابت، وخبيب بن عدي.

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب ثبوت الجنة للشهيد .رقم ١٤٧ .

فانطلقوا ليعلموا القبائل كتاب الله، فلما وصلوا إلى ماء الرجيع لهذيل تآمروا عليهم فقتلوهم.

وكان عاصم بن ثابت قد قتل ابنين لسلافة بنت سعد في يوم أحد، وقد نذرت: إن قدرت على رأس عاصم بن ثابت أن تشرب الخمر في قحفه.

وقد نذر عاصم ألا يمس مشركاً ولا يمسه مشرك في حياته، فأبرَّ الله قسمه، فكما أنه لم يمس مشركاً في حياته استجاب الله دعاءه، فمنع المشركين من مسّ جسده.

فلما قتل وأرادوا قطع رأسه، جاءت الدبر – النحل – وهي أسراب النحل وقفت فوق رأسه، فلما حالت بينهم وبينه، قالوا دعوه حتى يمسي فيذهب عنه فنأخذه، فبعث الله الوادي بماء، فاحتمل عاصماً فذهب به ولم يستطيعوا الإمساك به [1].

وقد أبرَّ الله قسمه وصدق رسول الله ﷺ:"**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره** ".

٢– آيات يستتر بها المؤمن عن أعين المشركين:

قال كعب [2]رضي الله عنه: كان النبي ﷺ يستتر من المشركين بثلاث آيات: الآية التي في الكهف [3]﴿ **إنا جعلنا على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً**﴾، والآية التي في النحل [4]﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾، والآية التي في الجاثية ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ**

(١) سيرة ابن هشام ٣/٩٩٠ .
(٢) تفسير القرطبي ١٠/٢٦٩ .
(٣) آية : (٥٧)
(٤) آية : (١٠٨)

يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

قال القرطبي: " ولقد اتفق لي ببلاد الأندلس بحصن منثور من أعمال قرطبة أني هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه، فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعد ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة ﴿يس ﴾وغير ذلك من القرآن.

فعبرا علي ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر: هذا " دِيَبْلُه"؛ يعنون شيطاناً، وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يرون، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك " [2].

(١) آية : (٢٣)
(٢) تفسير القرطبي ٢٧٠/١٠ .

خاتمة

اقتضت إرادة الله أن يكون القرآن الكريم آخر الكتب السماوية نزولاً، وتتميماً لهذه الإرادة فقد خصّ الله كتابه بخصائص ضمنت له البقاء والخلود دون تحريف أو تبديل، وبقي متألقاً بنظمه ونسقه وبيانه وتأثيره، فانتظمت آياته بياناً وفصاحة وبلاغة.

وقد عكف العلماء السابقون على دراسته، ينهلون من معينه العذب جوانب متعددة من العلوم والمعارف والحكم، فأفردوا الأبواب والفنون، ثم صنفوا فيها الكتب والمؤلفات التي تتناول تلك الجوانب.

ومن أهم هذه العلوم علم إعجاز القرآن الكريم، الذي أعطى لوناً جميلاً لكتاب الله العظيم، فالبحث فيه له رائحة فواحة، لا يشمها إلا من قرأ كتاب الله بتأمل وتدبر وتفكر، ولعل " الإعجاز النفسي للقرآن " من أهم أنواع الإعجاز وأكثرها حاجة للكتابة فيها.

وتأتي أهميته: لأنه لم يدون فيه كتاب مستقل يبحث في قواعده ومقدماته ونتائجه، وقد اعتمدتُ في البحث فيه على الله أولاً الذي يعين عبده على الرغم من تقصيره وعجزه، ثم على دراسات العلماء السابقين، فأخذت نماذج من آيات الله ممن كان لها أثر نفسي على النفس البشرية، ثم السنة النبوية المفسرة لكتاب الله، قال تعالى:﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (١)

وقد وصلت إلى نتائج أجد من المهم تلخيصها وتدوينها، وهي:

١- الإعجاز النفسي علم من علوم إعجاز القرآن الكريم يحتاج إلى مزيد من البحث والكتابة فيه، فهو يعين النفس البشرية على التدبر والتأمل في آيات الله.

١) سورة النحل آية : (٤٤)

٢- حرص الرسول ﷺ على هذا اللون من الإعجاز في الدعوة إلى الله، فكان سلاحاً يحرص فيه على إسماع المشركين كتاب الله في مناسبات عدة، وذلك لما يحوي هذا الكتاب من روح مؤثرة في النفوس.

٣- الإعجاز النفسي للقرآن الكريم له تاريخ عميق، فقد وجد هذا الإعجاز منذ نزول أول آية من كتاب الله على قلب النبي ﷺ، واستمر إلى آخر آية منه.

٤- شروط تأثير الإعجاز في النفس البشرية، هي:

أ- مصدر النص المؤثر وهو الله ﷻ، فقد جعل الله لكتابه خاصية مؤثرة في النفوس البشرية.

ب- فاعلية النص المؤثر، وهي الآيات التي جعل الله فيها روحاً تسري إلى النفوس فترق وتخشع،قال تعالى:﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾([1])

ت- الجهاز الإرسالي للنص، وأقصد قارئ القرآن، فكلما كان القارئ أكثر إيماناً ويقيناً بالله عزوجل ازداد تأثير النص القرآني في النفوس.

٥- تأثير القرآن يختلف من وقت لوقت، فإذا قرئ القرآن في مهبط الوحي كان تأثيره أشد، وكلما قرئ القرآن في أوقات الهدوء والسكون كان تأثيره لدى السامع أكثر، ولذلك استجاب الفضيل بن عياض للنص القرآني عندما سمعه في هجيع الليل.

٦- وكلما تهيأت النفوس وأصبحت قابليتها مستعدة لسماع الذكر كانت أكثر استجابة وإذعاناً لتأثير القرآن، وكان ذلك واضحاً بين عمر بن الخطاب

---

١) سورة الزمر آية : (٢٣) .

وأبي جهل، فاستجابة عمر كانت أسرع، فعمر ليست لديه موانع التأثير، بينما كان أبو جهل معروفاً بحسده وكبريائه، فحجبه ذلك عن تأثره بالقرآن.

وفي الختام أسأل الله ﷻ أن أكون قد وفقت في تقديم فهمٍ جديدٍ لآيات الله، فما كان من صواب وتوفيق فمن الله، وماكان من خطأ وزللٍ فمن نفسي والشيطان.

والحمد لله رب العالمين

فهرس المراجع

١- القرآن الكريم.
٢-إعجاز القرآن، لأبي بكر الباقلاني، تحقيق صلاح بن محمد، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ دار الكتب العلمية، لبنان بيروت،
٣- الأغاني لأبي فرج الأصبهاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية
٤- البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي، دار الكتب العلمية بيروت.
٥- تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي، للمباركفوري، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ -١٩٧٩ م، دار الفكر. بيروت.
٦- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - للخطابي، والرماني، وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق د. محمد زغلول _ دار المعارف _ مصر ١٣٧٦.
٧- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي _ دار الريان للتراث _ الطبري _ دار المعرفة. بيروت.
٨- دراسات في النفس الإنسانية. محمد قطب، دار الشروق، القاهرة
٩- دلائل الإعجاز _ عبد القاهر الجرجاني – تحقيق محمود محمد شاكر.، مكتبة الخانجي القاهرة.
١٠- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة والعشرون ١٤١٥هـ - ١٩٩٤ م.
١١- سنن أبي داود دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٢- سنن ابن ماجه، مطبعة عيسى البابي الحلبي .
١٣- سنن الترمذي . الترمذي – مطبعة الأزهر القاهرة.
١٤- السيرة النبوية، لابن هشام، دار الفكر، القاهرة.
١٥- السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة، للدكتور محمد أبوشهبة، الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، دار القلم دمشق.
١٦- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان.
١٧- صحيح مسلم بشرح النووي دار الفكر، بيروت.

١٨- الصراع من أجل التسليم للإيمان. تأليف د. جفري لانغ. ترجمة د. منذر العبسي. دار الفكر. دمشق.
١٩- الطريق إلى الإسلام.محمد أسد،الطبعة الأولى ١٤١٨هـ مطبعة العبيكان،الرياض السعودية.
٢٠- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، الطبعة الأولى _ ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م ، دار الكتب العلمية بيروت.
٢١- فتح البارئ بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.
٢٢- الفوائد، ابن قيم الجوزية، تحقيق بشير محمد عيون، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م، بيروت
٢٣- في إعجاز القرآن د محمد بركات المكتبة الدولية – مؤسسة الخافقين.
٢٤- في ظلال القرآن – سيد قطب – دار الشروق – الطبعة التاسعة – ١٤٠٠
٢٥- مجمع الزوائد، للحافظ الهيثمي، مكتبة القدسي.
٢٦- مدارج السالكين ابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة والعشرون ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٢٧- معجم مقاييس اللغة لأبي حسين أحمد بن فارس، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.دار الكتب العلمية بيروت.
٢٨- المفردات في غريب القرآن – للراغب الأصفهاني،مكتبة الأنجلو،مصر، ١٩٧٠م.
٢٩- نظرات في القرآن – محمد الغزالي – الطبعة الخامسة، دار الكتب الحديثة القاهرة.
٣٠- النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت.